بسم اللّه الرحمن الرحيم

تشكيلُ عقليةٍ إسلاميةٍ معاصرة



أ.د. عبدالكريم بكار

تنويه هام

تم حوسبة كتاب " تشكيل عقلية إسلامية معاصرة" بعد أخذ الإذن المباشر من فضيلة د. عبدالكريم بكار بحوسبة الكتاب و ذلك للمساهمة في نشر الوعي ، وليس للاستخدام التجاري،من خلال مبادرة القراءة منهاج حياة-فلسطين، و نسأل اللّه سبحانه و تعالى أن يجزي كل من ساهم في هذا العمل الخير الكثير و أن يحفظ الدكتور عبدالكريم بكار و أن يمد في عمره و أن ينفع به إنه ولي ذلك و القادر عليه .

نسعد بزيارتكم لصفحة المبادرة:

https://www.facebook.com/ReadingMLife

ما العقلية

إذا أردنا تعريف العقلية فإننا سنواجه بالكثير من الغموض والضبابية ، مع أننا نستطيع أن نلمس تجلياتها في الكثير من ضروب السلوك الفردي الاجتماعي . وإذا ما أصررنا عل وضع تعريف للعقلية ، فلا بد لنا من أن نرض بتعريف منقوص وغير حاسم. وتأسيسا عل هذا ، فإنه يمكن لنا أن نعرف العقلية تعريفا إجرائيا ،
فنقول :
إنها (مجموعه الطرائق والأساليب والمفاهيم المترابطة والراسخة التي نستخدمها في استيعاب الواقع الموضوعي ، والتي نحدد في ضوئها مواقفنا من الأحداث والأشياء ، وننظم عل هديها ردود أفعالنا). إنه يمكننا مع شيء من الجرأة وشيء من التسامح أن نقول : إن للعقلية شكلا ومضمونا ، وإن الشكل يتمثل في طرق التفكير وأساليبه وفي الوضعية العامة للعقل ، أو ما يمكن أن يكون صبغته المتميزة . أما المضمون فيتجسد في مجموعة المفاهيم المترابطة والمستقرة التي تشكل رؤيتنا للحياة ، كما تشكل المعايير التي عل أساسها نقيم الأشياء .
بين الشكل والمضمون علاقة أخذ وعطاء مستمرة ، فالمفاهيم التي تترسخ لدينا ، تحور في طرق تفكيرنا ، وطرق التفكير تشكل في النهاية بنية تمتص من الأفكار والمفاهيم ما يتناسب مع طبيعتها هكذا ....
من العسير جدا أن نكون على وعي كامل بالعوامل التي تشكل عقلية الواحد منا، فهي من التشابك والغموض والانثناء عل درجه تجعل تحديدها شكلا من أشكال المغامرة العلمية ، بما أن العقلية لا تبنى مرة واحده ، وإنما تظل شيئا قابلا للنمو والتغير ، فإنه يمكن لنا أن نذكر ثلاثة عوامل أساسية تسهم في رسم الملامح واللمسات الأولية ، ثم نتحدث في موضع آخر عن الروافد التي تصب في عقول الناس وتغير فيها مدى الحياة . وتلك العوامل الثلاثة هي :
1_ ما يرثه المرء من آبائه وأجداده من ذكاء وقدرة على الملاحظة وقدرة على التحليل والتركيب والتخيل والحفظ ... والناس متفاوتون في ذلك تفاوتا ليس بالقليل . الذي يملك قدرات عقلية عالية يكون أقدر استيعاب المفاهيم الجديدة وأقدر على تكييف بنية العقلية والثقافية معها ، كما أنه يكون أقدر على غربلة تلك المفاهيم وتمييز صالحها من فاسدها ، وإدراك مدى محورية وهامشية كل منها ، إن المتفوق في ذكائه يملك شفافية أعلى تجاه تقييم سلوكه واكتشاف ميزاته الشخصية ، وما لدية من عيوب وأخطاء . وهذا كله يجعل عقليته تبدو أكثر نضجا . وليس كذلك ذوو الذكاء المنخفض .
2_تربية البيتيه تأثير كبير في تأسيس العقلية ، حيث إن ل الخطوط العميقة في شخصية الطفل ترسم خلال سن ما قبل المدرسة ، وما يأتي بعد ذلك تكميل وتفصيل ، ومن الملاحظ مثلا أن هناك أسرا كثيرة ، تعتمد أسلوب المكاشفة والمصارحة

الداخلية فينشأ الطفل ولدية درجة عالية من الوضوح في رؤية كثير من الأشياء ، كما أن هذا يجعل انفتاحه على الآخرين أقوى .
على حين أننا نجد أيضا أسرا تعتمد أسلوب نقد الآخرين والبحث عن عيوبهم ، إلى جانب مديح الذات وإبراز ميزاتها ، والطفل يتأثر بذلك على نحو واضح حيث تكون ملكه النقد لدية نامية أكثر مما ينبغي ، كما أنه تتشكل لديه مفاهيم التي تحفزه على ممارسة النقد الغيري على مقدار ما تضمر لديه مفاهيم الند الذاتي .
وبعض الأسر تتمتع بوجود تاريخ علمي جيد لأسلافها ؛ مما يجعلها تغذي أخلية أبنائها بصور النجاح الذي يقوم على اكتساب المعرفة والتفوق العلمي ، على أن الأسر الثرية تغرس في أبنائها معاني النجاح القائم على كسب مال وجمع الثروات .
أما الأسر المحطمة التي تعيش في ظروف سيئة فإن أبناءها كثيرا ما يصابون بعقد النقص ، مما يجعلهم ينشغلون انشغالا واسعا في التخلص من عقابيلها . أضف إلى هذا أن أبناء الأسر البائسة يكونون في الغالب من ذوي الطموحات المحدودة والاهتمامات المتدينة ، كما أنهم كثيرا ما يكونون ضيقي الأفق ، ويفتقرون إلى المرونة الذهنية .
إننا في حاجه إلى ألا ننس أن الغشاء الفاصل بين الشاعر والأفكار غشاء رقيق جدا ، وأن الأفكار والمشاعر كثيرا ما تتبادل التأثير فيما بينها .
كما أن علينا ألا ننسى أيضا أن كل ما نقوله في مسألة المؤثرات في تكوين الذهنية ، لا يعدو أن يكون نوعا من الاجتهاد والظن العلمي ليس أكثر .
3_ البيئة العامة التي ينشأ فيها الإنسان ذات مهم في تشكيل طرق تفكيره وفي تحديد نوعيه المفاهيم التي يتشبع بها ؛ فحين يعيش المرء في بيئة متقدمة علميا وتقنيا فإن تفكيره يصبح أكثر منطقية ، ويكون ميله إلى التجريب ومحاورة الطبيعة أكبر . كما أنه يميل إلى احترام المفاهيم التي تنظم العلاقة بالآخرين ، ويصبح أكثر اهتماما بها . أضف إلى كل هذا أن اهتمامه بالمستقبل يكون أشد في الوقت الذي يعترف فيه بالواقع وبمعطياته المتعددة .
أما الذي يعيش في بيئة مختلفة ، فإنه تسيطر عليه المفاهيم التي تسوغ له ما هو فيه من تخلف وجهل وضعف . كما أن الفوضى تضرب أطنابها في كل شؤونه ، وتختلط لديه العواطف بالأفكار ، ويفتقد الكثير من الموضوعية ، كما تسيطر عليه الأوهام والخرافات .
إن تأثير البيئة في تركيبنا العقلي هو أكبر بكثير من أن نستقصيه في صفحه أو صفحتين .

إذا تساءلنا بعد هذا عن مقصودنا بوصف العقلية الإسلامية والمعاصرة أمكننا القول :
إن العقلية الإسلامية هي تلك التي تتأسس على الإذعان لأمر الله – تعالى – وتقوم بإنتاج الأفكار والمفاهيم والمقولات وفق روح الشريعة الغراء ، وفي ضوء أدبياتها وفي إطار ثوابتها وأصولها .
أما العقلية المعاصرة : فهي العقلية التي تعمل على مقتضى المنهج العلمي الرصين في محاكمة الأشياء ، بالإضافة إلى غناها بالمفاهيم التي أثبت التجارب صحتها

وفاعليتها في تيسير سبل الرقي ، وفي مقاومة الصعوبات وحل المشكلات التي أنتجتها الحضارة الغبية الراهنة . العقلية حتى تكون معاصرة في حاجة إلى أن تمتلك من الوعي بقصورها ومشكلاتها وجوانب قوتها نحوا مما تملكه عن أحوال العالم المعاصر بإيجابياته وسلبياته وتحدياته .
عن بلورة قسمات العقلية الإسلامية المعاصرة يعد أمرا في غاية الأهمية والإلحاح ؛ لأننا من غير صفة الإسلامية نكون قد أدخلنا عقولنا في نفس الأزمة الفكرية والروحية التي أوقع الغرب نفسه فيها . ومن غير المعاصرة تعرض أنفسنا وأبناءنا للتهميش الحضاري والانعزال عن تيارات التقدم ، أو نعرض أنفسنا إلى الاندماج من دون أي احتراز في حضارة أجنبية عنا ، مما يعرضنا إلى اضمحلال الذات وفقدان الهوية . وسوف تتضح هذه المفاهيم _ بإذن الله تعالى _ كلما مضينا قدما في هذا الكتاب ، وفي الكتاب الذي يليه .

حركة في إطار الأصول

لا يملك المسلم النضج العقلي المأمول من غير فهم جيدا لطبيعة تركيب العقل ووظائفه الأساسية . وكنت قد سلطت الكثير من الضوء على عيوب التفكر ونقائص العقل في كتاب (خطوة نحو التفكير القويم) والذي أعده مدخلا لهذا الكتاب .أحب أن أقول هنا : إن كفاءة عقولنا _ بوصفها مبادئ وإمكانات فطرية ، وبوصفها مكتسبات ثقافية وخبرات حياتية _ تظل مرتبطة بمدى ملائمة تجهيزاتنا العقلية والمعرفية للقضايا والموضوعات التي نريد اجتراحها وسبر أغوارها ، وبالتالي الإمساك بها والسيطرة عليها .
وقد انتهى كل أولئك المهتمين بشؤون العقل إلى أن قدراتنا الذهنية مهما كانت فذة ومتفوقة ، فإنها في النهاية تظل محدودة . وبسبب هذه المحدودية ستظل هناك فجوة بين وضعنا الإدراكي وبين ما نتمتع به من طلاقة الإرادة والطموح والتطلع ؛ مما يجعلنا نشعر دائما بالارتباك والعجز الذهني حيال القبض على الواقع .
الوحي بما يوفره من قطعيات ويقينيات وثوابت يؤمن الأطر التي تساعد العقل على العمل في مختلف شؤون الحياة .
والعقل بما يملكه من قدرة على الاكتشاف والسبر يقوم بإبداع الخطط والنماذج والأدوات التي تتيح توظيف المنهج الرباني في حياة الناس على الوجه الأمثل ، كما تتيح توفير ظروف العيش الكريم الآمن للناس في هذه الحياة .
وهذا توضيح موجز لهذه المسألة أسوقه في نقاط :
1 - المدقق في شؤون العقل وشؤون التشريع ينتهي إلى الإيمان بأن خالق العقل – سبحانه- هو الذي بعث النبيين ، وهو الذي أنزل الكتب وسن الشرائع ، إنه يلمس توافقا وانسجاما مذهلين ؛ فالله – جل وعلا – خلق العقل ليعمل ضمن أطر ومعطيات عامله وكيلة ، إنه غير قادر على تأسيس الكليات ، فهو لا يستطيع تحديد طبيعة الخير والشر دائما ، كما أنه لا يستطيع صياغة أهداف عامة وكبرى للوجود الإنساني على

هذه الأرض ، بل إن من العجيب أنه لا يملك الاستقلال الذاتي ، فهو في حالة من التفاعل المستمر مع المعطيات المعرفية التي تمده بها الحواس ؛ وفي اشتباك أيضا مستمر مع المشكلات التي يطلب من التصدي لها . وهو خلال هذا التفاعل مع المعلومات والمشكلات يعيد في تغيير طروحاته ومقولاته ، كما يعيد تشكيل مفاهيمه حول الممكن وغير الممكن وحول الطبيعي وغير الطبيعي ، بل يعيد تشكيل مفاهيمه عن كثير من حيثيا الوجود وشؤون الحياة .
وفي الوقت نفسه نجد أن الشريعة الغراء تولت رسم الأطر الكلية والخطوط العريضة في كل ما يختلف باختلاف الزمان والمكان، وأعرضت عن التفاصيل والمسائل الجزئية ، وعن الأساليب والأدوات التاركة للعقل والخبرات البشرية الاجتهاد في توفير كل ما يستلزمه تحقيق مصالح الناس من تجديد في الصنع والأطر والنماذج على هدي من روح الشريعة وتوجهها العام ، وضمن مبادئها العليا وأصولها الراسخة .
وهكذا فالعقل يعجز عن إبداع الرؤى الشمولية لأن ذلك من شأن الوحي ، والوحي يترك التفاصيل والجزئيات فيما يختلف في أمور معاش الناس باختلاف الأزمنة للعقل ليقوم بدوره الاجتهادي والإبداعي الكبير ، ومع ذلك الدور يصبح لمبدأ(ختم الرسالة) معنى جديدا ، حيث لا يعني الختم الجمود أ وتوقف عجلة التقدم المعرفي والاجتماعي ، وإنما يعني اكتمال البنى الأساسية والهياكل الرئيسية : العقدية والتعبدية والتشريعية . ويظل العقل يعمل على تفعيل أداء تلك البنى والهياكل من خلال توظيفها في صيغ وأساليب جديدة .
2 - على مدار التاريخ كان الذين يقفون في وجه رسالات الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – يعتمدون عل العقل ، بوصفه الأداة التي تنتج لهم الأدلة والبراهين التي تجعل موقفهم في المعارضة منطقيا ومعقولا ، وهم في ذلك لا يعرفون أنهم يطالبون من بنية غير ثابتة أن تنتج ثوابت وأصولا يسترشد بها الناس في حياتهم ، وهذا غير ممكن .
مع تقدم العلم ازدادت معرفة الناس بجوهر العقل ، وأخذ يتضح أمره للناس شيئا فشيئا ؛ وقد صار من الثابت أن العقل يتغذى بالمعرفة التي يستخدمها أثناء عمله ، ومن خلال تلك التغذية يغير في موقفه من الأشياء ، ويشرع نقد ذاته ومقولاته السابقة . وقد كان الناس من وجه آخر ينظرون إلى (المعرفة) على أنها شيء مواز ل(العقل) ومقابل له ، وطالما عقدوا المفاضلات بينهما . وفي عصرنا نظمت المعرفة على نحو لم يسبق له مثيل ، كما كثر المشتغلون بها كثرة غامرة ، مما أدى إلى تعاظم الإنتاج المعرفي على نحو مذهل
وهذا كله جعل التقدم الحضاري عامة يعتمد أكثر فأكثر على المعطيات المعرفية ؛ مما أد في المقابل تهميش دور العقل إلى الحد الذي سمح لبعض الباحثين أن يتساءل : - مع شيء من المبالغة – هل نقول : وداعا للعقل ؟ وعلى الحد الذي سمح لباحثين آخرين أن يسموا هذه الوضعية ب(استقالة العقل) .
قد كان العقل فيما مضى يتولى طريق البداهة والمنطق الحتمي – والذي كان الأيمان به واسعا جدا – التشريع لكثير من أحداث الحياة ، كما كان الإيمان به واسعا جدا –

التشريع لكثير من أحداث الحياة ، كما كان يقوم بمراقبتها ونقدها . وقد تغير كل ذلك تغيرا ليس باليسير ، حيث صار يعتمد في ذلك على المعرفة المؤصلة ، وعلى ما يتم استخلاصه من المشروعات والأعمال الناجحة .وقد صار للتجربة والتدريب دور نشيط جديد . وهذا الدور يقتطع الأرض التي يقف عليها من حمى العقل ومن ممتلكاته التقليدية .

إذا ما أردنا أن ننسجم مع هذه الوضعية الجديدة (استفحال دور الثقافة وتراجع دور العقل)، فإن علينا ألا نعتمد كثيرا على العقل في بلورة الثوابت والأصول الكبرى ، وإنما نترك تقريرها للوحي ، ونترك للثقافة

النامية والمتطورة وللعقل المتفتح دور البحث في إبداع الصيغ و النظم 00وربما يكون الدور الأساسي للعقل في هذا السياق هو إنتاج الأفكار والمفاهيم التي تنظر للثوابت وتفلسفها ، إلى جانب نقد الأساليب والنظم الجديدة بغية تطويرها وتحسينها .

3-أثبت العقل البشري أنه مهما بلغ من الاتقاء والنضج فإنه يقدم دائما نظرية جانبية مبتسرة . وقد كان هذا كافيا في ظل التغطية الشاملة والنظريات المتكاملة التي يقدمها (الوحي) . وحين استدبر الغرب رسالات السماء ، واستعاض عنها بفلسفات ورؤى وضعية هشة ومنقسمة على ذاتها صار الوعي الأوربي في العراء ؛ لأن من طبيعة العقل أن يبحث دائما عن محور يتحرك حوله ؛ فإذا لم يجد فإنه ينتج أفكارا متباعدة ومشتته ، ويصاب بالقلق والاضطراب المستمر إلى أن يحصل على نقطة ثابتة يتخذ منها منطلقا . ولما كان الوحي وحده هو الذي يمنح المحاور والنقاط الثابتة ، فإن العقل الغربي دخل في دوامة البحث عن جديد ، فهو لا يكاد يبلور مذهبا أو يحصل على رؤية محددة حتى يرتد بالنقض والتفنيد بسبب تطور الواقع وظهور معطيات لم يأخذها بعين الاعتبار فيما مضى ، فيشرع في بلورة مذهب جديد يدعي الكمال ، ويزري على المذاهب السابقة وهكذا...!

وما نذكره واضح جدا في المذاهب الأدبية ، فقد كانت (البنيوية) في يوم من الأيام تشكل مهوى أفئدة الغرب – ومن تبعه من الشرق – وقد كان يظن أن النقد الأدبي قد بلغ من خلال البنيوية قمة النضج ، وصار من يعارض البنيوية ، أو لا يستخدم مقولاتها في النقد والتحليل يشكل نموذجا للأديب الرجعي المتخلف . ثم أخذ المشروع البنيوي في الخفوت والاضمحلال حين عجز عن تقديم نموذج نقدي أو (إستراتيجية) نقدية تلقى نوعا من الاتفاق بين النقاد .

وجاء بعده (التفكك) ليحل محله ويجعل من الممسكين ب(البنيوية) رجعيين أو نصف رجعيين .وانطلق التفكك كالثور الهائج يحطم كل ثابت وكل مقدس ، وعمد التفكيكيون إلى العدول عن الاهتمام بتقديم نموذج في النقد إلى الاتكاء على ذاتية القراءة والتمرد على نهائية النص وإغلاقه ، فغاب الإطار المرجعي واختفت التفسيرات الموقوتة .

واليوم أخذ التفكك ينتهي إلى عين المصير الذي انتهت إليه البنيوية من قبل ؛ إنه الإخفاق في تقديم نموذج يشكل ما يشبه الدستور في ممارسة قراءة النصوص الأدبية ونقدها وتحليلها وتوضيح سبل الاتقاء بها . على الرغم من كل ذلك ، فإننا سنظل

ندعو إلى تجديد مناهج البحث وتحرير العقل من الأوهام والقيود التي ينتجها أثناء عمله ، وسيظل علينا أن نعتقد بصوابية المناهج التي لدينا ما لم تثبت التجربة والممارسة العملية قصورها ، فنسعى إلى تلافي ذلك القصور .
وإنما نقول هذا الكلام لأن نزع الثقة من مناهجنا في البحث ، من أساليبنا في إدارة المعرفة واستنسالها سيؤدي إلى الفوضى والعدمية . نحن لا نثق أن العقل أوصل الناس إلى مناهج صالحه لكل زمان ومكان ، ولكن في الوقت نفسه نعتقد أن ما توصلنا إلية إلى هذه اللحظة يحمل قدرا جيدا من الصواب .
ومع هذا وذاك فإننا نعتقد أن منهجا في البحث تتوصل إلية أمه من الأمم قد يكون أفضل من منهج تتوصل إليه أمه أخرى ، علينا أن نمتلك من المرونة والانفتاح ما يمكننا من تلقيح المناهج والأساليب بغية الوصول إلى المزيد من الصواب والنقاء .
قد آن الأوان لأن ندرك أن المذاهب والفلسفات التي تستمد مشروعيتها وجاذبيتها من الاستخفاف بالمقدسات ، ومن هدم النماذج وزرع الشكوك ، لا تستطيع أبدا إلا أن تنتهي إلى المصير نفسه الذي انتهي إليه ما كان سائدا قبلها . إن الشك لا ينبت اليقين ، وإن البنيان الشامخ لا يقوم على أساسات هشة كالملح ، ومائعة كالزئبق ، وغامضة كالضباب . وإن الذي ينكر على الآخرين الاعتراف بالثوابت لا يستطيع أن ينشي لنفسه ثوابت يعصم بها آراءه وأفكاره من التناسخ والزوال .
إن بعض المتأثرين بالفلسفات الغربية قد انتهى إلى أن العقل عاجز فعلا عن تقديم المحاور والأطر والصيغ الثابتة ، وعوضا عن أن يحث على استمدادها من (الحي) راح يبحث للعقل عن وظيفة جديدة ، هي إعادة الابتكار والتشكيل المستمر، أي أن يزري اليوم على ما كان استحسنه بالأمس .
ولست أدري كيف يمكن للممارسة العملية أن تتم في مجالات الحياة المختلفة إذا كان العقل قد فرغ نفسه لهدم أسسها النظرية ؟!
إنا نكره الجمود ، كما نكره التسيب والعدمية ونزعة الشك ، ونؤمن أن العقل يجب أن يظل ف حركة دائبة ، ولكن ضمن إطار ، وإن الثوابت التي جاء بها الوحي تركت مساحات رحبة ، يمارس فيها العقل عمله ، وهي مساحات تتسع وتضيق ، ولكنها تظل في النهاية ذات حدود ومعالم واضحة أو شبة واضحة .

خطورة العقل التقني

على مدار التاريخ كان الناس ينظرون إلى العقل على أنه مرشد للذات وضابط للسلوك وأداة حسنة للتميز بين الخير والشر والحسن والقبيح ، وبذلك كان يفهم من إطلاق لفظ (عاقل) على إنسان بعينه أنه متوازن ، يمسك نفسه على الرذائل ، ويتصف بالحلم والأناة والتريث في اتخاذ القرارات . وهذه الصفات كلها تدل على أن العقل كلما ازداد نضجا جعل صاحبه يشعر بالمسؤولية عن تصرفاته وأعماله ومواقفه .

في العصر الحديث أخذ الدور الإرشادي للعقل يتضاءل شيئا فشيئا حتى صار هناك خوف حقيقي من أن تنحصر مهماته في الاكتشاف والاختراع ، أي أن يصبح عقلا تقنيا شبيها بالآلة الصماء التي تصب القوالب ، وتصوغ النماذج . وأعتقد أن هذه المشكلة ليست سوى جزء من تضاؤل دور المعايير الأخلاقية في الحياة ، تلك المعايير التي جاءت بها الأديان السماوية ، حيث إن الغرب حين شطب الدين من حياته شطبا شبه كامل صارت المرجعية التي تستمد منها الأخلاق شرعيتها وهيبتها ومصداقيتها غير ذات اعتبار . وقد حاولت الحكومات أن تسن القوانين التي تحول دون تحالف العقل مع الخراب والدمار وإيذاء الإنسان فلحت في ذلك إلى حدود ضيقة ، لكن مع تطور الإمكانيات إلي تجعل أعمالا خطيرة كالاستنساخ تتم في شقه تحت الأرض ، صارت إمكانية المراقبة محدودة . أضف إلى هذا أن كثيرا من بحوث العلماء يحتاج إلى دعم مالي ضخم لا تستطيع توفيره في أحيان كثيرة سوى الحكومات ، وبذلك صار الكثير من إنجازاتهم ملكا لغيرهم ن يتصرف فيه كيف يشاء ويستخدمه بالطريقة التي يراها ؛ وهكذا فإن الذين اخترعوا أسلحة الدمار الشامل ليس لهم أي نوع من المشاركة في قرارات استخدامها !

إن العلم سلاح ذو حدين ، والعقل الذي لا يهتدي بهدي الشريعة يمكن أن ينتج لبني البشر الكوارث . الشريعة تهب للعقل الحكمة التي تردعه عن اللعب بإمكاناته ، واتي تعله يتحسس الآثار التي تترتب على إنتاجه ولعل قول الله – جلا وعلا – **إنا نحن نحي الموتى و نكتب ما قدموا و آثارهم و كل شيء أحصيناه في إمام مبين**}

ما يلفت نظر العلماء خاصة إلى ضرورة الحذر من أن يقدموا المعونة من خلال بحوثهم إلى أولئك الذين يستخدمون منجزات العلم في الإساءة إلى الإنسان وقهره وإذلاله ، وفي نشر الفساد والظلم في الأرض . مشكلة العقل أنه لا يدرك من تلقاء نفسه كثيرا من العواقب التي قد تترتب على منتجاته ، على حد قول أحد العلماء : (إن غاية الإنسان هي المعرفة ، لكن يظل هناك شيء واحد لا يستطيع الإنسان أن يحدده ؛ فهو لا يستطيع أن يعرف ما إذا كانت المعرفة ستقتله أم ستنقذه ؟ هو سيقتل ، حسن . ولكنه لا يعرف هل سيقتل بسبب المعرفة التي حصل عليها أم بسبب المعرفة التي لم يحصل عليها ؟ ! .

إن العقلانية مهددة اليوم أكثر من أي وقت مضى بأن تتدنى إلى مستوى تقنيات الجدوى ، كما أن العقل مهدد بأن ينظر إلية على أنه أداة لتحقيق المصالح والمطامع الشخصية واكتشاف الفرص وتأمين الظفر والغلبة في صراعات الحياة بقطع النظر عن مدى مشروعية ذلك ومدى موافقته للشرائع ومتطلبات الحكمة والمسؤولية . وقد بات على المسلم المعاصر أن ينتبه إلى هذا الاتجاه الخطير الذي يترسخ اليوم في الحياة العامة على نحو مفزع !!

موارد تنمية العقلية

ليست لدى الإنسان المعلومات ولا الخبرات ولا الدراسات الكافية للوقوف على المصادر الحقيقة لتشكيل عقله وتنميته . وحين يتمكن من تحديد تلك المصادر ، فإنه

سيجد جهله عظيما جدا بتقدير وزن مساهمه كل مصدر على حده . ومن المتوقع أن يتخلف كل هذا بين شخص وشخص آخر.
إن عقلية الواحد منا أشبه بحبل مجدول من عدد كبير من الخيوط وتلك الخيوط هي ما تلقفه وتعرض له وخبرة من عقائد ومفاهيم وأخلاق ومعلومات ونظم وفنون وعادات .... إنها عين العناصر التي تشكل (الثقافة) لا بوصفها مرادفة ل (المعرفة) لكن بوصفها كلا معقدا من روافد العقل والذات . وإن تأثرنا بتلك الروافد يختلف من مرحلة إلى أخرى من مراحل العمر ، فعلى حين تشكل الأمور التي ذكرناها جوهر الشخصية في مراحل العمر الأولى فإنها في مرحلة البلوغ وما بعدها تتفاعل مع ثوابت الشخصية ، وتسهم في صقلها وإحداث بعض التحويرات فيها ، وقد عرضنا تحت عناوين أخرى لبعض مصادر تنمية العقلية ، ونلقي الضوء هنا على بعض أخر منها على نحو موجز من خلال النقاط الآتية :

1 - التقليد : لعل التقليد أهم مورد من موارد العقل ، فالطفل الصغير ينظر بالكثير من الاهتمام إلى تصرفات أبوية وإخوته وأسرته ، ويغلب عليه الاعتقاد بصوابها وخيريتها ، وهذا يجعله يتشرب القيم التي تقوم عليها تلك التصرفات ن وتعبر عنها ، كما يجعله يصوغ سلوكه وعلاقاته على مثالها . ويشكل كون التقليد أهم مورد لبناء العقل سلاحا ذا حدين ، فهو من جهة يوفر أسلوبا طبيعيا وسهلا ومقنعا للتثقيف نقل المعلومات والعادات .... من السلف إلى الخلف لكنه من وجه آخر يكبل العقل حين يحدد له مجالات عمل ضيقة ، كما أنه يساعد على انتقال الأخطاء من جيل إلى جيل آخر؛ فباسم احترام التقاليد يستمر أعظم الأخطاء والنقائص أجيالا عديدة كما يجري الوقوف في وجه محاولات التغير والإصلاح ، كما يفعل التقليديون في كل مكان وزمان .

وإذا علمنا أن البنية العقلية العميقة لمعظم شعوب الأرض هي بنية خرافية أدركنا ما يمكن أن ينتقل عبر التقليد من أخطاء فكرية وانحرافات عقدية وسلوكية ؛ ومن هنا فإن دعوة الأديان كانت ترتكز على إيجاد مصاف ثقافية يستخدمها الإنسان أثناء التعامل مع مورثات الآباء والأجداد ، كما كان كثير من جهود الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام - يتركز في قطع استمرارية التقليد للسابقين من خلال تنبيه الناس إلى زيغ العقائد والمفاهيم التي عاش عليها أسلافهم . ولم يكن ذلك التركيز على نبذ التقليد يستهدف تخليصهم من ربقة سيء الموروثات فحسب ، وإنما تهيئتهم وحفزهم عقليا ونفسيا على تلمس معالم الحياة الروحية والسلوكية الجديدة التي يبشر بها الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام _ يقول الله عز وجل _ (إذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون } وقال سبحانه : (**وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون قال أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون .**)

نظرا لرسوخ التقليد في عقول البشر واعتبارهم إياه مرشدا مهما في حياتهم ، فإن كل الأمم قابلت الرسالات السماوية بإبداء المخاوف من أن يؤدي إيمانها بها إلى ترك ما علية الآباء والأجداد ؛ مما يعني نوعا من تلاشي الوجود المعنوي ، على نحو ما هو واضح في العديد من آيات القران الكريم .

إن بين التقليد وبين العلم والمنهجية والعقلانية والتدبر والبصيرة نوعا من التدابر والطرد العكسي ؛ فحيث يسود التقليد للآباء والكبراء والشيوخ ، يتراجع تأثير هذه الأمور في تشكيل العقلية وصياغة الحياة المعنوية عامة ، وحين يسود العلم والمنهجية ..... يتراجع التقليد؛ لكن من المؤسف أن التقليد سيظل هو الأصل وسيظل التأثير بالمنهج والخضوع لمقتضيات العقل والعلم هو الفرع !

إن التقليد أشبه باتجاه الماء نحو المنحدر ، فهو لا يتحول عنه إلا إذا وجد ما يحوله عن وجهته ويصرفه عنها ؛ ولن يتوفر في يوم من الأيام من المفكرين والدعاة وأهل الرشد ما يقوم بحاجة الجماهير المتلاطمة من أمة الإسلام ، أضف إلى هذا أن استجابة الناس للعقل في مواجهة التقليد تظل غير كاملة . نعم تتراجع اليوم قيمة الموروثات الشعبية في توجيه حياة الناس ، ولكن ليس بسبب المنهجية والعقلانية ، ولكن بسبب الاختراقات الواسعة التي تحققها العمولة على هذا الصعيد اليوم . وهذا يعني أن كثيرا من الناس سوف ينتقلون من تقليد الآباء والكبراء إلى تقليد الأجنبي وتقليد ممثليه في البلدان الإسلامية ، وتقليد الحالبين في إنائه والمتشعبين بثقاته !.

2 - أحداث الحياة : في ذات كل واحد منا أمور واتجاهات ومشاعر محتملة ، غير محسوسة ولا مبلورة ؛ فنحن نظل إلى حد بعيد غير متأكدين من قدراتنا ومدى صلابتنا ، كما أننا نظل غير متأكدين من مشاعر الآخرين نحونا ، ومن مدى التزامهم بمساعدتنا والتعاطف معنا ، كما أننا غير متأكدين من صلاحية الأساليب والأدوات التي نستخدمها . وأحداث الحياة المختلفة هي التي تحسم كل ذلك إلى حد بعيد . حين يدخل طالب إلى امتحان في مادة الرياضيات – مثلا – عددا من المرات ن ويكون حظه الرسوب والإخفاق الذريع ن فإنه قد لا يجد مناصا من الحكم على نفسه بأن الإمكانات الذهنية أو الميول التي يحتاجها النجاح في تلك المادة غير متوفرة لديه . وهذا يجعله حين يصل إلى مرحلة الجامعية يبتعد عن قسم الرياضيات ، وربما صار ينفر في المستقبل من كل الأعمال التي تحتاج إلى هذه المادة وليس هناك ما يقضي بضرورة صحة القناعات والتصورات التي تشكلت لدية ، فقد يكون الرسوب عائدا إلى أسباب أخرى غير استعداده الذهني ، أي أن أحداث الحياة لا تمنحنا المحطات والدلالات النهائية والقطعية على الرغم من الخبرات الجيدة التي تزودنا بها . لا يبعد أن يشكل تواطؤ وتواتر معين من أحداث الحياة بغض العقليات على نحو خاطئ وبعيد عن العدل والموضوعية والواقع ، بل إن هذا كثير الحدوث إلى درجة عموم البلوى أو الوباء ؛ فالمرأة التي تزوجت من شخص تظن أنه صالح وخلوق وعطوف ، وتعتقد أنها محظوظة بالاقتران به ، ثم يتبدى لها مع الأيام أن ذلك الشخص يتصرف تماما على خلاف ما كانت تظن ، وأفضى الخلاف بينهما إلى الطلاق ، فإنها ستتجه إلى الاعتقاد بأن النساء كثيرا ما يقعن ضحية للخداع من رجال

لا يستحقون حسن الظن .فإذا وقف أبناءها مع أبيهم ضدها صار لديها إيمان راسخ بأن جنس الرجال هو جنس سيء ظالم . فإذا وجدت أن قريباتها وصديقاتها وقفن في ذلك الخلاف ضدها صارت لا تتردد في الحكم بأنها تعيش في مجتمع لا يرحم ولا يعدل ولا يتفهم الظروف الصعبة لبعض أبنائه . هذا كله يجعلها تفسر ما تسمع به من قصص الخلاف بين الزوجات والأزواج في ضوء تجربتها المريرة ، كما يجعل عقلها يستقطب الأفكار والملاحظات والمفاهيم التي تؤكد ظلم أبناء المجتمع – ولا سيما الرجال – مما يؤدي بها في النهاية إلى تشكيل رؤية غير سوية عن الآخرين . وستحتاج تلك المرأة إلى معالجة ذهنية ونفسية حتى تستحوذ على رؤية اجتماعية صحيحة .

إن أحداث الحياة تفجر طاقات كامنة لدينا ، كما أنها تصرف انتباهنا عن طاقات وإمكانات وفرص هي في حوزتنا ومتاحة لنا . إن طالب الثانوي الذي توفى والده ، واضطر إلى أن يترك الدراسة ليدير المتجر الذي كان يملكه أبوة ، ينصرف انتباهه عما لدية من قدرات ومواهب في كتابه الشعر أو القصة أو دراسة العلوم والتاريخ ، في الوقت الذي تتفتح لديه المواهب التجارية والعلاقات العامة ، والحقيقة أن المرء حين ينتقل من عمل إلى عمل أو من حقل التعليم إلى ممارسه مهنه ، لا يتغير لديه مصدر رزقه أو المجال الذي يقضي فيه سحابة يومه فحسب ، وإنما ينتقل إلى حقل مليء بمفاهيم والدلالات والاهتمامات المغايرة ؛ ففي حقل العمل التجاري – مثلا يصبح الإنسان أقل مثالية وأكثر واقعية ، كما أنه يتعلم أدبيات التفاوض والتكيف والتوازن والتنازل من خلال المماحكات اليومية مع زبائنه ، كما أنه يتشبع بالمقولات والخبرات الموجودة في مجال التجارة . وهذا كله ينعكس على طريقته في التفكير والتأويل ، كما ينعكس على طريقته في امتصاص المعلومات المتاحة .

3 - الملاحظة : الإنسان من غير شيء من المفاهيم يرى الكون المادي والواقع الإنساني والتاريخي ... على أنها ظواهر مفككة لا تحكمها أي صلة أو رابطة ، وقد ملّك الله – جل وعلا – البشرية عن طريق الوحي الكثير من المفاهيم التي يمكن أن تتخذ منها نقطة بداية نحو فهم أشمل وأعم للوجود . وتملك تلك المفاهيم أتاح للإنسان أن يقوم بالخطوة التالية ، وهي ملاحظة السلوك الإنساني بالإضافة إلى ملاحظة سلوك الأشياء حوله . والحقيقة أن الإنسان حتى يحيا الحياة الآمنة المنتجة في حاجة ماسه إلى إدراك العلاقات التي تربط بين أكبر عدد ممكن من الأشياء ، والتقدم العلمي على مدار التاريخ يظل يتكئ على ذلك الإدراك .

عقولنا مؤهله لأدراك الروابط السببية والملاحة والتجربة من أهم وسائلها إلى اكتشاف تلك الروابط ؛ ومن خلالهما تم اكتشاف العلاقات بين عشبه في البرية وبين الشفاء من مرض في عضو من أعضاء الإنسان . الاستفادة من تسخير الكون لنا متوقفة على ما نمتلكه من مفاهيم ومعلومات عن ذلك الكون ، وتلك المفاهيم والخبرات تأتي عن طريق الملاحظة لطبائع الأشياء وسنن الله – جلا وعلا – في الخلق .

وعلى سبيل المثال فإن الإنسان بات يعرف الضغط يولد الانفجار وفي مجال الاجتماعي قد يولد الانفجار، وقد يولد لدى معظم الناس النفاق . هذا المفهوم استفاد منه الإنسان في مجالات علمية وصناعية عدة ، وصمم كثيرا من الآلات بناء على دلالته ، كما استفاد منه في المجال التربوي والاجتماعي . وهو مع كل ذلك يثقف عقله ويرسخ فيه العديد من أشكال الارتباط بين الأشياء كما يبصر الكون وهو أكثر ترابطا وتعالا واستجابة لخدمة الإنسان .
الحصول على مفاهيم كثيرة يقتضي أن يهتم الكثير من الباحثين بملاحظة سلوك الأشياء وعلاقاتها ؛ والأمم الأكثر تقدما هي الأمم الأكثر إنفاقا على الملاحظة والتجربة ، وهي بالتالي الأمم الأكثر غنى بالمفاهيم المختلفة . والأمم النامية والفقيرة تملك مفاهيم أقل عددا وأقل عمقا وأقل دقه وبلورة بسبب ضعف الملاحظة والتجربة لديها . المهم دائما أن نعرف أن المفاهيم التي توصل إليها العلماء في المجال الإنساني يغلب عليها طابع الليونة وعدم الاطراد ، ولذا فإن على أبناء كل جيل أن يستفيدوا مما حصل عليه الجيل السابق ، ويحاولوا إثراءه وإنضاجه من خلال المزيد من الملاحظة والمزيد من التحوير والتطوير .
الملاحظة تشكل العقلية وتنميها ، لكن ليس هناك أي نظام يحول دون تشويه العقلية من خلالها ، فقد انحط المركب العقلي لدى كثير من الناس بسبب القيام بملاحظات غير دقيقة ، أو بسبب استنتاجهم من ملاحظات جيدة مفاهيم خاطئة ، أو بسبب صياغة نظرية هشة ضعيفة من مفاهيم جزئية ، وليس أمامنا سوى التسلح بالوعي والحنكة وسوى التعامل مع المفاهيم التي بحوزتنا بشفافية ومرونة .

4 - القراءة والاطلاع

القراءة والاطلاع من أهم روافد تنمية العقلية ، لو تصورنا إنسان يحاول أن يثقف عقله وينمي ذهنيه من خلال تجاربه الذاتية ومعاناته الشخصية لوجدنا أن ذلك الإنسان لم يستطع الحصول على أقل القليل مما هو متاح الآن من خبرة ومعرفه وهذا ظاهر لدى الأميين ولدى الذين يعيشون في بيئات معزولة .
حين يتناول الناس المعارف المتاحة عن طريق الشفوية ، فإن الدور الحاسم في التثقيف يكون للأذن ؛ ولذا فإن القدماء حين كانوا يفاضلون بين السمع والبصر فإنهم كانوا يميلون إلى تفضيل السمع ، أما اليوم فإن معظم المعارف الموثوقة والدقيقة والعقدة هي تلك المعارف التي نصل إليها عن طريق البصر ، وتفيد بعض الدراسات أن 70/% مما يرد إلى الدماغ من معلومات ترد عن طريق العين ، وذلك بسبب انتشار الثقافة المكتوبة وطغيانها على الثقافات الشفوية ، وحضارة اليوم هي فعلا حضارة الكلمة المكتوبة .
في الاطلاع والقراءة تواصل مع تجارب الأمم وخبرات الشعوب ، وتواصل مع جمهور العلماء والباحثين في مختلف المجالات ، أي إننا من خلال القراءة نخترق حجب الزمان والمكان ونتجاوز ما يسببانه من تباعد وانعزال وتفكك وسوء فهم .... إن الطبيعة – كما يقولون – تكره الفراغ وإنه بمجرد أن يعرض أحدنا عن أوعية

الثقافة المكتوبة فإنه يعرض نفسه للوقوع في فخاخ وشباك الثقافة الشفوية ، وهي ثقافة يغلب عليها الطابع الأهلي والشعبي والمحلي .

إذا كانت الثقافة المكتوبة التي نتعامل معها عن طريق القراءة والاطلاع تستهدف - وإن لم تصل – تكوين العقلية المنهجية المنطقية التي تمنح من المعارف الحديثة والمنظمة والمختبرة ، فإن الثقافة الشفوية هي ثقافة موقفيه تخضع للظروف الحاضرة ، وتتجاوب مع انفعالات الناس ومشاعرهم ، كما يفعل خطيب مرتجل يستهدف إثارة سامعيه ويتفاعل مع جمهوره ؛ إنها ثقافة انفعالية سطحية بسيطة لا تهتم بالموضوعية على مقدار اهتمامها بالتلاحم الأهلي وتوفير الأمن الاجتماعي . وهي في سبيل تحقيق ذلك تبيح لنفسها المداراة والمبالغة وإمساك العصا من الوسط ، أي مصالحة على حساب المفاصلة ووضع النقاط على الحروف ....
ولذا فإن العقلية التي يحملها الناس المعرضون عن التثقيف والاتصال بالكتاب ، هي عقلية بعيدة عن إيقاعات العصر ومشاغله وتحدياته ، وهذا يشكل في الحقيقة أحد أكبر الهموم لدى أمتنا ، حيث يزيد المعدل الوسطي للأمية على 40%!.
حين نتعلم النظر في أشكال القراءة ومستوياتها ، وفي نوعية ما يقرؤه الناس ، فإننا سندرك أن المطلوب ليس أي صله بالكتاب ، ولا أي شكل من أشكال الاطلاع عليه .
ولا أريد أن أتحدث عن هذه القضية حيث كنت عالجتها في رسالة مستقلة ، لكن أقول إن من المهم دائما أن نعرف ما الذي نأمله من وراء نشاط القراءة ، وكيف نختار ما نقرؤه ، وكيف نقروه على الوجه الصحيح ؟
على صعيد النقطة الأولى : ينبغي أن نستهدف من وراء ما نقروه توسيع قاعدة الضم لدينا ، وتحسين مستوى إدراكنا ، ومستوى المحاكمة العقلية والنقد . وأعتقد أن بلوغ هذا الهدف لا يتم إلا من خلال العزم على أن نقرأ بنيه الإضافة للمعرفة وتنميتها وليس بنية الاستفادة والاستهلاك فحسب ؛ القارئ الممتاز يعيد إنتاج الكتاب من خلال الإضافات والتحويرات والنقود التي يتوصل إليها .
وعلى صعيد النطة الثانية : فإن من المهم أن نختار الكتاب الذي نشعر أنه أعلى قليلا من مستوانا ؛ لأنه هو الكتاب الذي يرتقي بنا. أما الكتب السهلة فإنها تذكر ببعض المنسيات وليس أكثر ، لكنها تستهلك أعز ما نملكه وهو الوقت .،
وأما ما يتعلق بمهارات القراءات فإن الحديث عنه يطول لكن من المهم أ، نعمل وفق مبدأ التالي : كلمت بذلنا في فك رموز الكتاب واختراق حجبه وقتا أطول وجهدا أكبر حصلنا منه فائدة أكبر.

5 – تعليم الأساتذة :

مهما تحدث الناس عن ضعف أداء المدارس ، ومهما تحدثوا عن دورها في تباطؤ نمو ذكاء الطلاب فإنه في الحقيقة ليس هناك أي بديل قادر على القيام بالدور الذي يقوم به ولعلي ألمس دور المدارس في تنمية العقلية عبر المفردات الثلاث الآتية :
1 - تقدم المدارس معلومات مترابطة ضمن مساقات ومواد ومناهج متنوعة وهي عبر ذلك تسهم في تنظيم عقول الطلاب وتنظيم علاقتهم بالتخصصات العلمية

والمعرفية المتخصصة . ومن غير المدارس ومناهجها فإن الإنسان يتلقى أخلاطا من المعلومات المتناثرة ، مما يجعله غير قادر على تكوين أي تصور جيد عن أي تخصص من التخصصات . والمدارس من وجه آخر تواكب نمو عقل الطالب ونمو تحصيله المعرفية من خلال تدرجها في تقديم المعلومات من الأوجز والأسهل إلى المعقد والمركب والمسهب ، وهذا بالغ الأثر في دفع عقلية الطلاب نحو النضج والتفتح .

2 - كثيرا ما يقدم المدرس الجيد معلومات غير منهجية ، مما يصعب على الطالب العثور عليه ، فالمعلم من خلال مطالعاته الخاصة يثري الخلفية المعرفية لطلابه بالمعلومات والأفكار العامة . وقيمة المعارف العامة تكمن في أنها تساعد الطلاب على فهم أحوال العالم المعاصر كما يساعد على توسيع أفاق التفكير لديهم .

3 - يقوم المعلم بدلالة الطلاب على النظريات المنسوخة وعلى الأقوال الضعيفة والأفكار الذابلة التي فقدت حيويتها من خلال توضيح آخر ما انتهى إليه العلم في المواد التي يقوم بتدريسها ، وهو بذلك ينمي لدى طلابه المرونة الذهنية ، كما ينمي القابلية لديهم للتعامل مع الجديد والبحث عنه . وهذا عمل في غاية الأهمية ، حيث إن كثيرا من الناس يتمسكون بالقديم لأنهم لا يعرفون الجديد ، أو لا يعرفون انتهاء صلاحية القديم وفقده لوظيفته في بناء الحياة . لا أريد أن أطنب في شرح الخدمة التي يقدمها المعلمون على صعيد تنمية عقول الطلاب ، لكن أقول : إن المحك الأساسي في جودة ما نقدمه لطلابنا ربما تمثل في نصاعة النموذج الذي يتجسد في معارفنا وعلاقتنا وتوجيهنا وهو نموذج يحكي الفرق بين العالم والجاهل ، وذلك الفرق يصنعه التعلم والتعليم .!

6 – الحوار :

مهما كانت الإمكانات الذهنية التي لدى الواحد منا عظيمة فإنه سيظل يشعر بالعجز عن رؤية الأشياء على نحو إحاطي وشمولي .

وهنا تأتي أهمية الحوار حيث يوفر نوعا من تكامل وتلاقح الرؤى الجزئية ، مما يؤدي إلى تنمية شاملة لها وللعقل عامة سواء أفضى ذلك الحوار إلى الاتفاق أو أفضى إلى تمسك كل شخص برأيه الخاص ؛ حيث إن المتحاورين يكسبان في حال إصرار كل منهما على رأيه بلورة أسس واضحة للخلاف ، مما يؤدي في النهاية إلى نوع من التعاذر والتسامح ؛ كما أن بلورة أسس الخلاف تبعد من الساحة الخلافات الشكلية والإجرائية والخلافات القائمة لا على تباين فكري وإنما على تحسس نفسي ونفور شعوري.

يؤدي الحوار دورا مهما في تنمية الذهنية من حيث إنه يستهدف في الأصل إضاءة النقاط المظلمة لدى كلا المتحاورين ؛ ما ينتج عنه نوع من النضج العام . وقد قال أحد المفكرين : إن الأفكار لا تنضج إلا إذا لاكتها ألسنة المناظرة .

من خلال الحوار يكتشف أحدنا نقاط الضعف من المسألة موضوع الحوار ، مما يدعوه إلى إعادة بنائه من جديد . وإذا وقف كل واحد منا ففي مسيرته العقلي والفكرية

فإنه سيجد أنه طالما غير من طروحاته ومقولاته نتيجة الحوار والناش الذي تم بينه وبين غيره .
المهم دائما أن ينتج عن الحوار المزيد من الثراء في الأفكار والمفاهيم ؛ وهذا هو الذي يخفف من حده التصلب الذهني ومن حده الرؤى الأحادية ؛ لكن الحوار لا يأتي بالثراء إلا إذا انطلق في الأصل من قاعدة معلومات جيده لدى المتحاورين .
نحن لسنا بحاجه للحوار من أجل الحصول على المزيد من المفاهيم الجيدة فحسب ولكننا بحاجه إليه أيضا من أجل إعادة تشكيل عقلياتنا من خلال نقد المفاهيم القديمة وكشف أشكال الزيف والقصور الفكري التي عانينا منها طويلا .

7- التأمل :

نحن في عصر شديد التعقيد وشديد التغير ، ومع التعقيد والتغير يفقد النظر المتعجل والسطحي كفاءته وفاعليته ؛ فإذا أضفنا إلى ذلك ما ابتلي به كثيرون منا من حب الإنجاز السريع على أي وجه كان ، أدركنا مدى حاجتنا إلى إفساح المجال أمام الكثير من الوقت من أجل التأمل والتفكير وحاوله اكتشاف الهشاشة والتناقض داخل منظومتنا الفكرية والثقافية .
يعني التأمل استخدام مختلف قوانا العقلية وقدراتنا الذهنية على نحو نشط ومركز في فهم حقيقة ما يجري وحقيقة ما نحن فيه واتخاذ الموقف الراشد منه . التأمل يساعدنا على الوصول إلى كثير من الأشياء الجيدة وبلوغ الكثير من الأهداف الحيوية والتي منها الآتي :
1 - رؤية السنن الربانية التي بثها الله عز- وجل – في الآفاق والأنفس والمجتمعات حتى لا نصطدم بها ، وحتى نتكيف معها ونأخذها بعين الاعتبار في مختلف شؤوننا وتحركاتنا . وتلك السنن تشكل الثوابت التي تمنح الأشياء الاستقرار والاستمرار ، كما تشكل المسارات التي على كل الأشياء تمضي فيها . ومن المفيد في هذا الشأن التسلح بالحكم والأقوال القصيرة التي أطلقها مشاهير العالم ؛لأنها تشكل عصارة تجارب البشرية في معاناتها الطويلة ؛ وسنن الله – تعالى – يكتشفها كل من يعمق النظر ويبذل الجهد في فهم أحوال الوجود المختلفة بقطع النظر عن دينه وزمانه ومكانه .
كثيرا ما يشكل اكتشاف السنن (فقه الطرق المسدودة) وهو فقه عظيم يوفر علينا الكثير من الجهود والأوقات والأموال لنصرفها في وجوهها الصحيحة والمثمرة .
2_ ترتيب المعلومات والملاحظات التي نحصل عليها ، وتوزيعها على أنساق ومنظومات محددة . والحقيقة أن ما توفره لنا القراءة والتجربة من معطيات ومحصلات لا يصبح ملكا لنا على نحو راسخ إلا من خلال القيام بالتفكير فيه مليا ؛ ولذا قالوا: على الإنسان بعد كل ساعة قراءة أن يفكر ثلث ساعة فيما قرأ ؛ ليحدد ماذا يعني ذلك بالنسبة إليه ، حين أقرأ كتابا وأخرج منه بعشرين أو ثلاثين معلومة جيدة ومهمة ، فإني أستطيع من خلال التأمل النشط والمكثف أن أوزعها على الخطوط والقناعات الرئيسية لدي ؛ فهذه ملاحظة أو معلومة تعزز رؤيتي للإصلاح في

المجال التربوي ، وتلك فكرة أو معلومة تجعلني أخفف من تقديري وانحيازي للاتجاه الفلاني ؛ وهذه ملاحظة ثالثة تؤشر إلى قله خبرتي بالقضية الفلانية ؛ وتلك معلومة رابعة تدلني على تفاؤلي المبالغ فيه بالنسبة إلى الموضوع الفلاني وهكذا ...
إن التأمل في كيفية توزيع المعلومات وإخضاع الفروع للأصول والجزئيات للكليات يعني نوعا من الاستثمار الفكري والمعرفي في إنضاج رؤيتنا للحياة وتنمية عقلياتنا تجاه إدراكنا للأشياء وهذا ما نحن في أمس الحاجة إليه .

2 - فتح حقول للممارسة والعمل . ومن الواضح أن من أكثر ما يتجلى فيه القصور لدى الشعوب النامية هو مجال الإنتاج حيث تعود كل واحد نمطا من السلوك ؛ وحيث ارتبط كل واحد بنوع معين من العمل ؛ فهو لا يفكر في غيرة ، ولا يسعى إلى إيجاد بديل له مهما كان ذلك العمل ضعيفا وقليل الفائدة !
التأمل في هذه السبيل يعني اكتشاف الإمكانات والمهارات الشخصية على نحو جيد ؛ ثم اكتشاف الفرص والأعمال المتاحة والتي تتناسب مع تلك الإمكانات والمهارات .
وإذا نظرت في أوضاع الشرائح المعوزة والفقيرة وذات الدخل المتدني لوجدت أن أوضاع الشرائح المعوزة والفقيرة وذات الدخل المتدني لوجدت أن أفرادها كثيرا ما يؤثرون بذل الجهد البدني مهما كان شاقا ، ويعرضون عن التفكير والتخطيط والتأمل في اكتشاف مجالات جديدة وبديلة للأعمال التي يقومون بها . وربما كان ذلك بسبب عدم تعودهم بذل الهد العقلي أو بسبب سيطرة اليأس والإحباط عليهم ، فلا يرون أي بارقه أمل في تحسن أحوالهم ، وربما كان ذلك بسبب ضيق آفاقهم وقله اطلاعهم ، فهم يعتقدون أنه ليس في الإمكان أبدع مما كان . ومهمة التأمل تسليط الأضواء على كل ذلك واستخلاص مؤشرات ومرشدات جديدة بغية توظيفها في اكتشاف فرص جديدة .
4_ اكتشاف وجوه الخلل في حياتنا الشخصية والعامة ؛ حيث إن من شروط التقدم في أي مجال وعلى أي صعيد إدراك جوانب القصور والخلل أولا وقبل كل شيء.والحقيقة أن نجاح التأمل في الوصول إلى ذلك يتوقف على مدى وضوح رؤيتنا للصور الصحيحة والجيدة التي ينبغي أن نكون عليها . وأعتقد أن مما هو عظيم الفائدة في هذا الشأن أن يقوم كل واحد منا بالمقارنة بين وضعيته ووضعيات الآخرين ممن يعتقد أنهم أفضل منه حالا . وعلى سبيل المثال فإن في إمكان مدير شركة متعثرة أو ناجحة أن يقارن بين أساليب الإدارة والإنتاج ومواصفات الجودة والتعامل مع الزبائن ... وبين ما لدى شركة أخرى يعتقد أنها أفضل من شركته في هذه الأمور . وإذا استطاع أن يقف على العلل والأسباب الجذرية لذلك ؛ فإنه يكون قد وضع رجله على بداية الطريق الصحيح ، وحصل بالتالي على معلومات ومعطيات وملاحظات لا تقدر بثمن .
علينا أن نختار للتأمل الأوقات الأشد هدوءا والأوقات التي يكون فيها الدماغ في أفضل حالاته كوقت ما بعد الفجر – مثلا – حيث تكون أدمغتنا قد نالت حظها من الراحة . ومن المهم هنا أن ننتبه إلى أن التأمل المركز لا يعني حصر الذهن في التفكير بشكل مكثف وكأننا نريد أن نصل إلى شيء مهم في أقصر وقت ، وإنما يعني

أن نمنح أنفسنا الفرصة الكافية لتقليب النظر في المسألة موضوع التأمل ، ولا يضر الانقطاع والابتعاد عنها بعض الوقت ما دمنا بتسجيل كل الأفكار والخاطر التي وردت وترد إلينا حولها .
كلما تعرضنا أكثر لموارد تنمية العقلية مما ذكرنا ومما لم نذكره لم نشعر بالتقدم العقلي فحسب ، بل نشعر بالتقدم على مستوى الذات عامة ، وتحسن وضعية كل مسلم يصب في النهاية في رصيد أمة الإسلام ما يؤدي إلى تحسن موقعها على خارطة العالم وزيادة وزنها في الموازين الدولية .

الموقف الذهني من تلقي المعرفة

أستطيع القول : إن أدركنا للطريقة التي تدار بها المعرفة المتاحة والطريقة التي يتم التعامل بها مع الجهل يعد شرطا مهما من شروط تكوين العقلية ألإسلامية المعاصرة ، كلما خطت البشرية خطوة في اتجاه معرفة المزيد من أسرار الكون ومعرفة المزيد من نظمه وقوانينه ، تألق صدق وعمق قول الله – جل وعلا : (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) فنحن في حصولنا على المزيد من المعرفة نكتشف مقدار الجهل الذي كان لدينا ؛ كما أن المعرفة الجديدة تثير – في العادة – تساؤلات جديدة ، لا نستطيع وقت إثارتها الإجابة عليها ، وتكشف عن طبقة جديدة مجهولة من طبقات الحقيقة . في هذه الحالة التي ينمو فيها المعلوم والمجهول قد لا يكون أمامنا من حل سوى تعميق ونشر الوعي بطبيعة التثاقف في عصرنا الحديث ، وبطبيعة موقف الناس مما يجهلون . وهذه بعض الملاحظات في هذا الشأن :

1 - الأمية بين المسلمين واسعة الانتشار ، وهي تتجاوز في بعض البلدان ال(70 %) وهذه النسبة عالية جدا بمقاييس هذه الأيام ، وتصبح مفزعة إذا أضفنا إليها نسبة أخرى مهمة تحكي حال الذين لم ينالوا سوى الشهادة الابتدائية أو المتوسطة . وإذا كانت علاقة الشريحة الأولى معدومة بالمعرفة المكتوبة ، وبالثقافة الراقية فإن علاقة الشريحة الثانية كثيرا ما تكون واهية أو مشوهة . هذه الوضعية تجعل الموقف العقلي للسواد الأعظم للمسلمين من فهم طبيعة الأحداث الجارية وطبيعة المعرف المتناولة هشا ، حيث تنعدم الأسس المنهجية والمعرفية التي تعصمهم من الوقوع في شرك المتاجرين بالمعرفة ، وأولئك الذين يحتلون مواقع أكبر في شرك المتاجرين بالمعرفة ، وأولئك الذين يحتلون مواقع أكبر بكثير من مقاساتهم العقلية والمعرفية ، فأخذوا يهرفون بما لا يعرفون ، ولذا فإنهم يخربون أكثر مما يبينون ، ويبعدون الناس عن الحقيقة أكثر مما يقربونهم منها . إن إحساس الإنسان متوسط وضعيف الثقافة بهذه المشكلة قد يكون حافزا له على أن يكثر من سؤال من يثق بهم من أهل العلم والخبرة .

2 - الحشد الهائل من النظريات والتحليلات والاحتمالات والأخبار أوقع أعدادا كبيرة من الناس في حيرة أمرهم : ماذا يقبلون وماذا يرفضون ، وإلى أي الأقوال

يميلون ؟ والحقيقة أن الغموض قد يكتنف بعض الأحداث إلى درجة تجعل أعظم المتخصصين شأنا حائرا ، وتجعله لا يشك في أن ما يقوله في محاولة الفهم والتفسير لا يعدو أن يكون اجتهادا ، لا يزيد حظه من الصواب والاقتراب من الحقيقة على حظه من الخطأ . في هذه الحالة قد يكون أفضل موقف عقلي يتخذه الخاصة والعامة معا هو النظر إلى ما يقال على أنه عبارة عن وجهات نظر ليس أكثر ، وأن على المرء أن يجتهد هو الآخر في فهم ما يسمع ، لعله يستطيع ترجيع وجهة نظر معينه على غيرها . وعليه أيضا وهو يفعل ذلك أن يعتقد أن ترجيحه لا يعدو أن يكون اجتهادا يخطئ ويصيب !

3 - في العالم عامة والعالم النامي خاصة يتحدث الناس دائما عما يعرفون ، كما أننا كثيرا ما نستخدم الصيغ والعبارات القطعية والجازمة مما يوحي للسامع والقارئ أننا أخذنا بناصية الحقيقة ، وسيطرنا على موضوعنا سيطرة مطلقة . ماذا يفعل الإنسان العادي ونصف المتنور تجاه هذه الوضعية وهو لا يحسن الاعتراض ولا الاستفسار ؟

قد يكون من المفيد في هذه الحالة أن نعلم جميعا أن الحقيقة ليست ذات طبقة واحدة ، وإنما ذات طبقات متعددة ، وأنك كلما استوعبت طبقة برزت لك طبقة أكثر عمقا ، ووجدت معلوماتك حولها تتضاءل ؛ كما أنك تجد أن ما لديك من أدوات معرفية بات عاجزا عن مساعدتك في اختراق الطبقة الأعمق . ولعلي أوضح ما أقوله عن طريق المثال الآتي :

اشتريت قلم رصاص ، وجعلت تتأمل فيه ، وتغوص نحو الحقائق المرتبطة به ، إنك في البداية لا تشك في أن ما بين يديك هو قلم رصاص ، كما لا تشك أبدا في أن لونه بني أو أسود ، ولا تجد أية صعوبة في معرفة طوله ووزنه لو أحببت . فإذا تجاوزت ذلك إلى معرفة طبقة المواد المستخدمة في ذلك القلم ومقدار تكلفتها ، وعدد الأقلام التي أنتجها المصنع من نوعه ومدى جودته إذا ما قورن بالأقلام الأخرى وكم صفحة يمكن أن نكتبها به .... فإنك ستجد أنك لا تعرف شيئا من ذلك ، وربما كان جميع أهل بلدك وجميع أهل البلد الذي صنع فيه القلم أيضا لا يعرفون أيضا عن ذلك أكثر مما تعرف بل ربما كان كثير من عمال المصنع المعني لا يعرفون إلا القليل من ذلك .

ماذا يعني هذا بالنسبة إلى ما نحن فيه ؟

إنه يعني أن الكاتب أو المتحدث كلما تناول طبقات أعمق في كينونة الحقيقة ، وكلما تناول تفاصيل أكثر دقة وفرعية قلت درجة تأكده مما يقول إلا في حالات استثنائية ، كأن يكون المتحدث نفسه هو صانع تلك التفاصيل أو المشرف عليها . وهذا يعني مرة أخرى أن علينا – ونحن نستمع إلى تفاصيل دقيقة – أن نشك في مدى دقة الذي يقدمها لنا وفي مدى حسن اطلاعه عليها . والفروع والجزئيات هي دائما مناط اجتهاد وتخمين ، والتلاعب بها سهل ولذلك فهي وسط ملائم للأوهام والظنون والتزيد ، ويجب أن نعاملها من هذا المنظور .

4 - هناك عدد من الظروف والأوضاع التي تؤثر في طريقة تقديم المعرفة ونوعية ما يتم تقديمه من حقائق وأخبار ومعلومات ؛ فبعد المجال أو الموضوع أو

الواقع الذي نقرأ أو نسمع عنه عن معارفنا وخبراتنا قد يشجع مقدمي المعرفة على إدخال ما يقدمونه في نطاق المتاجرة وحصد المنافع ، وذلك يعرضه للتشويه والاجتزاء والتضخيم . وليس هذه الوضعية بالنسبة إلى معظم الناس أي علاج .
وأحب أن أسلط الضوء على هذه الأوضاع بغية تحسين موقفنا مما نقرأ و نسمع ؛ وهذا تلخيص موجز لما يحضرني منها :

1 - كلما اتسعت المسافة الثقافية بين مقدم المعرفة ومتلقيها كان لنا أن نتوقع مزيدا من الخلل في عملية التثقيف ؛ فمقدم المعرفة بين جهته يجد أن أمامه مساحة واسعة ليقول كلاما بعيد عن الحقيقة أو مغرقا في الغموض؛ لأنه لا يتوقع معارضه جادة من المتلقين عنه . وهذا واضح جدا اليوم في العالم الغربي ، حيث يدلي كثير من كبار الإعلاميين والسياسيين بتصريحات وملاحظات تفتقر إلى الدقة والمنطقية الموضوعية ، وكأن المرء إذا بلغ مكانة مرموقة جاز له أن يهذي وأن يحرف دون أن يخشى ملاحظة أحد . وقد قرأنا وسمعنا الكثير في سياق ما سمي بأحداث (11 سبتمبر).

أما المتلقي فإن المسافة الواسعة بين مستواه المعرفي ومستوى الذي يتلقى عنه تجعله دائما معرضا للوقوع في سوء الفهم وخطأ التفسير والتأويل . وعليه آنذاك أن يتهم نفسه قبل أن يسيء الظن فيمن يتلقى عنهم .

2 - حين تقدم المعرفة للجماهير بطريقة احتكاكية مباشرة ، كما هو الشأن في المحاضرات والخطب والبرامج الفضائية التي يشارك فيها الجمهور .... فإن احتمالات التشويه والتزييف والتجاوز تصبح أكثر ورودا ، فالناس لا يرتاحون للصيغ الرخوة من مثل : أتوقع وأظن ولا أدري ولعل ..... ولا سيما في أوقات الأزمات الكبرى – إنهم يريدون كلاما جازما قاطعا ، وكلما كان ثوريا عالي التوتر لقي قبولا أكثر . ولا يملك المتحاورون ومقدمو المعرفة آنذاك إلا أن يتفاعلوا مع الجماهير وينزلوا عند رغباتها . وتلمس هذا واضحا إذا قارنت بين ما يكتبه الشخص وبين ما يقوله ي لقاء مفتوح . هذا يعني أن ندرك أن بعض ما يقال ينحرف عن الحقيقة قليلا أو كثيرا . وحين تقدم معلومات والحقائق والملاحظات في سياق السعي إلى الغلبة على الخصوم والمتنافسين – كما في البرامج الحوارية – فإن احتمال تشويه ما يتم تقديمه يصبح أكبر . وأظن أن هذا واضح .

3 - لابد أن نلتمس نوعية علاقة مقدم المعرفة بها . حيث أن الذي يدعو إلى مناصرة قضية من القضايا ينزلق في كثير من الأحيان إلى تضخيم الميزات والتقليل من العيوب والسلبيات دون شعور منه – أحيانا – وفي تاريخنا الإسلامي وفي واقعنا ما لا حصى من الشواهد على هذا . وعلى سبيل المثال فقد عمد بعض الزهاد والعباد إلى الكذب على النبي – صلى الله عليه وسلم – حين نسبوا إليه أقوالا لم يقلها رغبة منهم في حفز الناس على فعل الخيرات ، وفي تخويفهم من الوقوع في المعاصي . !!
إن بعض الداعين إلى اعتناق مذهب أو الانخراط في عمل من الأعمال يخلطون بين ما هو كائن وبين ما ينبغي أن يكون ، فيقدمون ما ينبغي أو يحتمل أن يكون على أنه كائن فعلا ، إنهم يسوقون ما يشتهون حصوله لا ما هو حاصل !

علاقة الإنسان بالمعرفة علاقة شائكة ومعقدة ، وإذا ما قمنا بغض الطرف عن ذلك فإن من المحتمل أن تتحول المعرف التي نتلقاها من مصدر للتنوير إلى مصدر لتوليد الأوهام والتصورات الفاسدة !.

التساؤل مفتاح التجديد

يشكل التساؤل جزءا مهما من نظم التفكير في العقلية المعاصرة . وطبيعة السؤال المطروح ومستواه يعبران على نحو دقيق للغاية عن المستوى العقلي والمعرفي لصاحبة . نحن عادة لا نتساءل إلا إذا أبصرنا المساحة الفاصلة بين الطبيعي وغير الطبيعي ، والمنطقي وغير المنطقي . وإدراك تلك المساحات متوقف على نحو جذري على خصوبة الخيال وعلى الانخراط في معاناة التعلم والبحث والاكتشاف والإنتاج المعرفي . وهذا الانخراط نفسه ينمي لدى صاحبه حساسيات خاصة باكتشاف المشكلات والمعضلات في الحياة العامة ، ومع أن طبيعة الابتلاء تجعل من وجود المشكلات جزءا مألوفا من مفردات الوجود إلا أن الناس لا يدركون المشكلات عادة على نحو مباشر وإنما عبر نماذجهم العقلية وعتادهم المعرفي .
الحقيقة – كما ذكرنا – طبقات بعضها فوق بعض ، وكلما وصلنا إلى طبقة أعمق توسعت قاعدة الفهم لدينا ، ووجدنا عندها إشكالات جديدة ، تحفز على طرح المزيد من الأسئلة ، فالعقل ينسل الأسئلة في حالة تقدمة وارتقائه ، ويكف عن التساؤل في حالة جموده وعطا لته ، وكأن طرح الأسئلة يعبر عن خصوبة العقل وشبابه وحيويته ، على النحو الذي يعبر به (الحمل) لدى المرأة .
أصحاب العقليات الناضجة والسائرة في طريق النضج يتخذون من الأسئلة مفاتيح لأبواب المعرفة المغلقة ، كما يتخذون منها أدوات لتجديد الطرح الفكري . وهم في أكثر الأحيان لا يتوقعون من وراء إثارتها الوصول إلى أجوبة شافية ، وافيه ؛ ولا سيما في المسائل الحضارية الكبرى ، لكنهم يؤملون من وراء التساؤل الحصول على أجوبة تفتح آفاقا جديدة في الحفر المعرفي ، وتوفر أسسا متينة للخلاف ، كما تبني معقوليات وأطرا تتحرك داخلها أقوال الباحثين والمتحاورين والمنظرين للقضايا موضع التساؤل .
إن طرح السؤال يشبه إلقاء حجر في ماء راكد حيث إنه يهدم ظاهرة الاتساق المصطنع في السياقات الفكرية والمعرفية من أجل الوصول إلى اتساق جديد أفضل اكتمالا .
قد يقول قائل : لماذا نجعل التساؤل جزءا مهما من تكوين العقلية المعاصرة والناضجة ؟ ولماذا نجعله جزءا من طريقة عملها ؟ ولماذا نجعله على هذه الدرجة من الأهمية ؟
أمكننا أن نقول: إنما فعلنا ذلك لأن الذين يطرحون الأسئلة الجادة والعميقة قد تخلصوا من أسر الموروث الشعبي الذي يجعل التساؤل أمارة الجهل وقلة الدراية ، كما يدللون

على أنهم استطاعوا من خلال الأسئلة كسر جدار العز والإحباط الذي يعاني منه الأمة ، والذي يعد عدوا لدودا للتفاعل والانفتاح الذي يولده التساؤل .
إن المسائل يبرهن على أنه يملك خاصية (الدهشة) والتي تعد مقدمة مهمة من مقدمات الاندفاع في دروب البحث العلمي .
ومن وجه آخر فإننا إذا تأملنا في أحوال الذين لا يتساءلون وجدنا أن المركب العقلي لدى كثير منهم واقع تحت تأثير نمط من أنماط الخرافة ، حيث إن الشعوب التي تستمتع بسماع عجائب الأخبار وغرائب الوقائع تنمحي لديها الفوارق من الممكن والمستحيل ، والعادي وغير العادي ، ليصبح كل شيء في نظرها ممكنا وواردا وعاديا ، وأحيانا بعيدا وغير متوقع ومستحيلا على مقتضى ما يقوله وعاظ الغرائب ودعاة الطرائف والعجائب !
الذين يتساءلون يبرهنون مرة أخرى على أنهم يملكون القدرة على المحاكمة الأصلية والمنطقية التي تساعدهم على التحرر من الخرافة ، كما تساعدهم على رؤية الأشياء على ما هي عليه .
وأخيرا فإن أصحاب العقليات الناضجة يتساءلون لأنهم يملكون مفاهيم أكثر امتداد وعمقا من المفاهيم السائدة في مجتمعاتهم ، وتلك المفاهيم هي التي تجعلهم قلقين معرفيا في الوقت الذي يتمتع به باقي الناس بمناهج الاستراحة العقلية !
السؤال الذي يطرح نفسه بقوة علينا هو : كيف نجعل الإنسان المسلم لا يقتنع بأي كلام يسمعه ، ولا بأي نتيجة يصل إليها ، وإنما يحاول أن يبحث عن المسكوت عنه والمهمش ، ويتغلغل في أعماق المجهول ؟
الحقيقة أن المسألة تحتاج إلى علاج طويل المدى ، وإن جزءا مهما من ذلك العلاج يرتبط بتقدم المعرفة والبحث العلمي في عالمنا الإسلامي ، ووجود شريحة عريضة من الناس الذين يغذون وضعية التثاقف بالمزيد من الحيوية والمزيد من المنتجات الفكرية والبحثية الجيدة.
وأعتقد مع هذا أن المدارس والجامعات دورا مهما في هذا ، فنحن لسنا بحاجة إلى معلم الذي يحجز على الطلاب إلقاء الأسئلة والاستفهام عن الغوامض ، وإنما نحن في حاجة إلى المعلم الذي يشجع الطلاب على التساؤل والنقد والإضافة ، المعلم الذي يقول لطلابه : هل بقي شيء يتعلق بالموضوع يمكن أن نتحدث عنه؟ وهل تعتقدون أن في موضوعنا نقاطا لم نوفها حقها ؟
أما في مجالس السمر – وما أكثرها – فنحن في غنى عن الأشخاص الذين يستأثرون بالمجالس لظنهم أن الناس ليسوا مؤهلين لشيء سوى الاستماع إليهم بوصفهم موسوعات متحركة تحيط بكل شاردة وواردة ! إننا مطالبون بترسيخ تقاليد ثقافية تعتمد البيانات الصغيرة والشروح المختصرة من أجل إتاحة أطول الأوقات للمداخلات والمناقشات والتساؤلات والحوارات ؛ ومن المهم كذلك أن نشجع على إبداء الآراء مهما كانت فجة ، من خلال حسن الاستماع للمتحدثين ومن خلال المناقشة والاعتراض في إطار من الاحترام المتبادل .

تكامل الأضداد

حين تكون الخبرة محدودة ، ويكون الأفق ضيقا والمعرفة سطحية ، فإننا نرى الأشياء على غير ما هي عليه : إننا نميل آنذاك إلى رؤية الكائنات على اختلاف أنواعها معزولة منفصلة ، حيث نرى الفعل تارة ، وتارة رد الفعل ، ومن النادر أن نرى على المستويات الأعمق المشهد العام ، وقد اشتبك فيه الفعل والرد عليه في علاقة جدلية يسودها الأخذ والعطاء والتأثر والتأثير؛ مما يجعل رؤيتنا بالتالي حولاء ، ويجعل تفسيرنا للأشياء ناقصا أو خاطئا .
إن زماننا هذا هو زمان التعقيدات والتداخلات والاشتباكات ، ومن المتوقع أن يزيد ذلك مع كل تقدم يحدث في تقنيه الاتصال ، ونحن اليوم في أمس الحجة إلى امتلاك الرؤى والتصورات والمفاهيم المركبة والمعقدة إذا ما أردنا أن نكون في الموقع المكافئ للتعقيد الحاصل في العلاقات المحلية والكونية اليوم .
وهذه بعض الملاحظات حول هذه القضية المهمة :
1 - إن الله – جل وعلا – الواحد الأحد خلق الكون على قاعدة الزوجية ، وليس على قاعدة التفرد والتوحد ، يقول الله – سبحانه : { ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون }
وإن كانت الزوجية في الأحياء أشد ظهورا فإنها موجودة في الجمادات أيضا؛ فالكون كله مؤلف من ذرات ، والذرة مؤلفة من زوج من الكهرباء موجب وسالب ، وهكذا في كل مجالات الحياة وجوانبها هناك المتقابلات والمتضادات : الدنيا والآخرة ، والروح والجسد ، والمادة والمعنى ، والشكل والمضمون ، والقليل والكثير ، والصعب والسهل إلخ ....
إن الزوجية تعني الاستمرار وتعني النمو ، ولذا فإن الله – تعالى – قال لنبيه نوح – عليه السلام – حين أراد إغراق قومه :(**حتي إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول**) إنه أرشده إلى أن يحمل معه من كل شيء زوجين ، مع أنه في حالة صعبة وطارئة ؛ لأن حياة من أراد الله – تعالى – له النجاة من الغرق لا تستمر إلا من خلال الزوجية .
ماذا يعني مبدأ الزوجية في الخلق؟
إنه يعني أن كل شيء من مخلوقات الله – تعالى يدخل في علاقة تقابلية تناقضيه مع شيء آخر ، وهو من خلال تلك العلاقة يكتسب ميزة فريدة ، إنه في أداء عمله ووظيفته في الوجود يصبح كل شيء ولا شيء ، وهذا واضح جدا في مسألة الإنجاب ، فالذكر عنصر أساسي في عملية الإنجاب ، ولا يتم من غيره أي شيء ، لكنه من غير أنثى يصبح وجودة وعدمه بالنسبة إلى تحقيق الإنجاب واحدا ، وهكذا فالرجل من غير امرأة لا يعني أي شيء والمرأة من غير رجل كذلك . التكامل جعل الإنجاب أشبه شيء ب(شيك) لا يصرف حتى يوقع عليه شخصان . إنها لفكرة تكاملية تكافلية رائعة لو استطعنا إدخالها إلى بؤرة الوعي لدينا لقطفنا منها أعظم الثمرات ، ولتلافينا من خلالها الكثير من المنافسات والمصادمات ؛ وكم يكون مدهشا أن أرى في الصعوبات والعداوات والظروف غير المواتية أشياء تشد من أزري وتقويني

وتبرز مكنوناتي النفسية وتحرضني على التجدد بل قد أبصر من خلالها بعض لذائد الحياة ، وقد أدرك العرب ذلك قديما حين قالوا : إن للشوهاء فضلا على الحسناء .
وكأنهم يقولون : إن على الحسناء بدل أن تتكبر على الشوهاء أو تذمها أن تشكرها لأنها هي التي أبرزت محاسنها . وقالوا : الصحة تاج على رؤوس الأصحاء لا يعرفها إلا المرضى .
وقد امتن الله – على العباد بتعاقب الليل والنهار ، وأنه ما جعل عليهم الليل أو النهار سردا دائما ، لأنهم من خلال مكابدة أمور المعاش في النهار يعرفون فضل الليل وما يوفره من راحة وسكون ، وهم حين يأخذون ما تحتاجه أجسامهم من راحة في الليل يشتاقون إلى النهار حيث يمضون إلى كسب أرزاقهم .
إن الليل يعرف بفضل النهار ، كما يعرف النهار بفضل الليل من خلال حركة دائبة ومتناوبة ، ويقول سبحانه : وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}
وهذه طريقة فذة في التأليف بين مفردات الوجود وبث معاني التناغم والانسجام بين جميع الأشياء ،و هي طريقة مضادة لما تثيره الحضارة الغربية من الصراع والنزاع بين الإنسان والإنسان ، وبين الإنسان والطبيعة ، وبين الروح والجسد ، والشرق والغرب 000
2 - يعلمنا القران الكريم أن وجود التضاد والتناقض الكوني ضروري لاستقامة الحياة وتوازنها حيث يوقف النقيض نقيضه والضد ضده عند حدود معينة ، فلا تختل الموازين ولا يسيطر على الحياة والاسترسال . إن فكرة (الوسطية) ما كان لها أن توجد لولا وجود الأشياء المتقابلة .

ومن الواضح أن الاستمرار يقوم على التوازن ، والتوازن يقوم على الوسطية ، يقول الله – جلا علا : (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك و لا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسورا)
ويقول سبحانه :(وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا)

بل إن القران الكريم يعلمنا أن نلتمس التوازن فيما هو خارج عن مداركنا ومعارفنا ؛ على نحو ما نجده في قول الله تعالى -: (عسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون "

إنه يرشدنا إلى أن ما نحبه من الخير العاج قد تكون عاقبته شرا ، وأن ما نكرهه من الشر العاجل قد تكون عاقبته خيرا . وبما أننا لا نعرف العواقب ، فإن علينا ألا نبطر ونمضي في الفرح إلى منتهاه في الحالة الأولى ، كما أن علينا ألا نجزع أو نقنط في الحالة الثانية ، وبذلك من أفق النقيض الذي قد يفضي إليه ، فنتوازن ونتماسك ، ونصبح اقرب على الاعتدال . ويعلمنا القران الكريم مرة أخرى أن التدافع الذي يحدث بين المتناقضات يحول دون انتشار الفساد في الأرض ؛ ويقول سبحانه - : (

وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى العَالَمِينَ).
إذ إن من طبيعة الإنسان أن يتمادى ويطغى ، ويحاول ألا يقف عند أي حد وفي ذلك فساد عريض وظلم وجور وإخلال بتوازن الوجود الحيوي والاجتماعي ؛ يقول الله – تعالى : كلا إن الإنسان ليطغى ~ أن رآه استغنى"
إن الدرس الذي نستفيده في حياتنا المعاصرة من وراء هذه النقطة هو ألا ننزعج من الأمور التي تخالف أمزجتنا وأهواءنا وقناعاتنا ؛ لأننا من غيرها قد نتحول إلى شيء مخيف وخرب من خلال التمادي في أمر من الأمور دون أن نجد شيئا يوقفنا عند حد من الحدود .
مبدأ(تكامل الأضداد) يجعلنا نوسع مساحة الرؤية لنرى الأشياء على أنها جزء من منظومات أوسع ؛انظر معي إلى ما يزعج الرجال من نمو العاطفة والانفعال لدى النساء ، إلى جانب ضعف المحاكمة في العقلية في أمور كثيرة . وانظر إلى ما يشكوه النساء من جمود العاطفة لدى الرجال وسيطرة العقلانية عليهم إلى درجة تجعل المرأة تظن أن الرجل كثيرا ما يتصرف وكأنه لا قلب له ، لكن إذا عرفنا أن تربية الأولاد لن تتم على الوجه الصحيح إذا قامت على مقتضى مزاج الرجل منفردا ولا على مقتضى مزاج المرأة منفردة ، أدركنا الحكمة العظمى من وراء اختلاف تكوين شخصية الرجل عن تكوين شخصية المرأة ، حيث يكمل كل واحد منهما الآخر ويعدل مزاجه ، ويظهر الخلل الذي يحدث بفقدان الضد عند انفعال الأبوين وصيرورة أمر تربية الأولاد إلى أحدهما .
في الحياة الثقافية نشاهد حربا شديدة الأدوار بين الأدباء والنقاد وهي حرب كثيرا ما تبدو مزعجة ومقلقة ، لكن فيها حياة الأدب وجد شيئا يتحدث عنه ، ولما كان للنقد أي وجود ، كما أن للناقد من وجه آخر فضلا عن الأديب لأنه لولا النقد لم يرتق الأدب ، ولأرسل الأدباء أدبهم على عواهنه لعدم وجود من يتعقبهم ويراجع أعمالهم ؛ مما يؤدي إلى انحطاط الإنتاج الأدبي وهذا يدعو كل واحد من الفريقين إلى أن يغتبط بوجود الآخر ؛ لأن اختفاء أي منهما من الساحة الأدبية سيؤدي إلى اختفاء أو انحطاط الآخر .

الحياة الدنيا دار ابتلاء ، وقيام شؤون الوجود عامه على مبدأ الزوجية وعلى علاقات التناقض والتقابل يعد في حقيقة الأمر أداه من أدوات تجسيد الابتلاء ، فحين يعمل أحدنا في منطقه أو في وظيفة ، ويشعر بالارتياح والنجاح في ذلك العمل ، فإن ذلك الشعور يعد ضربا من الابتلاء حيث تحجب عنا الفرص المتوارية والإمكانات الكامنة ، والنجاح في ذلك الابتلاء يقتضي ألا نركن لتلك المشاعر ، وأن نتحسس ما هو أحسن وأفضل ، ولعل هذا بعض ما يستنبط من قول الله – جل وعلا – (ونبلوكم بالخير والشر فتنة وإلينا ترجعون)

من المجالات التي يظهر فيها الابتلاء المبني على التناقض حياتنا الاجتماعية ، فقد قضت حكمة العليم الخبير ألا تتطابق مصالح الفرد يرون أن مما يصب في مصالحهم المباشرة تكوين ثروات عريضة دون أن يدفعوا أي شيء منها للدولة أو لأي جهة أخرى ، ولذلك يكثر في كل أنحاء العالم التهرب من دفع الضرائب مع إنه لا يمكن

تحقيق كثير من صور التكافل الاجتماعي والخدمات الاجتماعية إلا عن طريق ما يدفعه الأفراد من ممالياتهم الخاصة . والنجاح هنا يتجسد في مغالبة شهوة التملك والقيا بما يحقق المصلحة العامة . إننا من خلال التعامل مع المتناقضات والمتضادات بهذه الرؤية نحقق شيئا من تكامل الأضداد ، حيث إن الحالة المضادة للحالة التي نشعر أنها تناسب أمزجتنا ومصالحنا – تعمل على تحسين مستوانا النفسي أو الخلقي أو السلوكي من خلال تحريرنا من حالة السكون والاستكانة التي أصبحنا أسرى لها . أو من خلال تحريرنا من الاستسلام لأهوائنا وشهواتنا ، لكن ذلك يتوقف على ما نملكه من إرادة وعزيمة .

4-بين الضدين حوارات ورسائل متواصلة ، منها ما يستعلن ، ومنها ما يظل مستترا ، لا يدرك إلا على سبيل التأويل والتخمين .حين يتخاصم شخصان ، فإن موقف كل منهما يتغير وفقا للإشارات التي يتلقاها كل منهما من الآخر ، فالإشارات الودية الصادقة تغير في موقف الخصم وتكسر حدته ، وتستحثه عل أن يصدر إشارات مماثلة ما لم يفسرها على أنها علامة ضعف ومقدمة لاستسلام نهائي ، فإنها تؤدي آنذاك إلى تصليب موقفه والزيادة في درجة عدائه . و الإشارات العدائية تستحث الطرف المقابل على التحفز للرد بالمثل ما لم يفسرها على أنها لا تعبر عن الحقيقة ، وإنما أرسلت لأغراض لا تتعلق بجوهر العلاقة المتوترة بين الطرفين .

العلاقات بين الضدين لا تأخذ صفات الثبات ولا صفة التكافؤ ، وإنما تتبدل بحسب موقع كل ضد من الآخر ، بمعنى أن نوعية العلاقة تعكس على نحو ما الوضعية العامة للطرفين وعلى سبيل المثال : فإن علاقتنا بالغرب هي علاقة الضعيف بالقوي ، ومن الصعب أن نحقق من خلالها مصالحنا على النحو الذي يحققه الغرب، إذ من القوانين التناقض أنه حين يلتقي قوي وضعيف فإن القوي يكون أقدر على الاستفادة من ذلك اللقاء.

تقول إحدى القواعد التي تحكم العلاقة بين المتضادات : " ما يستهلك يهلك" فنحن نستهلك الأغذية الدسمة ونتمثلها ، وهي الأخرى من جهتها تستهلك شباب أجهزة الهضم ، وتؤثر فينا على نحو سيء، ولذا فإن الإنسان حين يرخي لنفسه العنان ليعب من الشهوات والملذات دون رادع أو ضابط فإنه يستكثر من السهام المسمومة التي تتجه نحوه ، وبناء على القاعدة المذكورة يظهر خطأ قول الناس : " فلان يعيش حياته بالطول والعرض" نعم ، إنه يستطيع أن يعيشها بالعرض ، لكن لا يستطيع أن يعيشها بالطول ، لأن قانون الضدية يحول دون ذلك ، وهكذا حين يرخي جهة ما – كاليهود في فلسطين مثلا – العنان لجيشها ليقتل الأطفال والنساء ويهدم الممتلكات فإنها لا تستطيع أن توفر له أية ضمانة من أن يدمر خلقيا ونفسيا من خلال انعكاس سوء ممارساته على شخصية . وهذا ما هو حادث فعلا ، لكن آثاره لا تظهر بشكل كامل إلا على المدى البعيد .

من رحم الظروف الصعبة يخرج الرخاء لأنها كانت دائما تؤدي دور المحرض على التقدم . ومن رحم الرخاء تولد الصعوبات والمشكلات لأن الرخاء يقوم بدور المخدر للقوى والطاقات ، ويوجد ظروف الترف واللهو ونفسية الاتكال على المنجزات ، لكن علينا أن ندرك أن ذلك لا يتم بطريقة تلقائية أو سلسلة ، فالشدائد قد تدوم قرونا

دون أن تفضي إلى الرخاء ، وفي عالمنا الإسلامي مشكلات متأسنة عانت منها عشرات الأجيال ، وما ذلك إلا لأن الإنسان الذي لا يعي طبيعة مشكلاته ، ولا يحاول اكتشاف آفاق حلولها لا يصير بسبب مدتها ، كما يحدث للسجين إذا انتهت مدة الحكم علية .
في المقابل فإنه يمكن للازدهار أن يستمر قرونا طويلة ما دام الذين يتمتعون به قادرين على معالجة الأخطاء والمشكلات التي تنجم عنه .
وأخيرا فإنني أعتقد أنني لم أبلغ القاع في هذا الموضوع الحي ، كما أعتقد أن مزيدا من التنقيب المعرفي سوف يولد لدينا المزيد من اليقظة والمزيد من الحذر والمزيد من الشفافية نحو التعامل مع سنن الله – تعالى – في الخلق .
كما أنني آمل أن نحاول اكتشاف آفاق جديدة للعلاقة مع المنافسين والصوم وإدراك أدوارهم الإيجابية في حياتنا ، ومحاولة استثمار ذلك على أحسن وجه ممكن .

الفكر عمل توليفي

حين نقول : إننا نعيش في عصر معقد ، فإن ذلك لا يعني سوى تعقد الظواهر السياسية والاجتماعية والاقتصادية ....التي تشكل البيئة التي نتنفس فيها ، ونؤمن من خلال التفاعل معها احتياجاتنا المختلفة ، وتلك التعقيدات الشاملة تملي على العقل كي يستطيع استيعابها والسيطرة عليها أن يعمل هو الآخر على نحو معقد ،وذلك بسب كثرة العوامل والاعتبارات التي علية أن يأخذها في الحسبان كيفما يستطيع الخروج بتصورات وأفكار وأحكام ترقى إلى مستوى التعقيد الموجود في الظواهر والمشكلات التي يقوم بمعالجتها .
وإذا نحن أنعمنا النظر في كل الأفكار والرؤى المدهشة فإننا سنجد أنها مستنسلة ومولدة من معطيات وإشارات وملاحظات واردة من عدد من العلوم والمستويات لمعرفية المتخلفة . وعلى العكس من هذا فإن الأفكار البسيطة والمباشرة والسطحية ترد غالبا من خلفية معرفية متخصصة جدا أو متقوقعة . وقد صار أهل الخبرة والدراية ينظرون إليها على أنها من نتاج عقل غير ناضج ، أو أنها أفكار لم تنل ما يستحقه إبداعها من أناة وروية وتأمل ، أو أنها صادرة عن رؤية تفتقر إلى السعه والشمول.
حتى تتمتع عقولنا بالكفاءة المطلوبة فإنها في حاجة إلى تحسين سوية إمكاناتها وتجهيزاتها الخاصة ؛ فنحن نريد – مثلا – استيعاب ما يلاحظ اليوم من تفاقم (ظاهرة الطلاق) فإن عقولنا حتى تقترب من مرادها في حاجة إلى أن تتمتع بالحساسية المفرطة تجاه التفاصيل
والإشارات الصغيرة التي لا نأبه لها عادة ، ولا نعطيها أية قيمة .
وعلى سبيل المثال : فإن الشعور بالإرهاق وارتفاع درجات حرارة الطقس والضجيج وانتقال كثير من الأدوات والسلع والتجهيزات المنزلية من حيز الكماليات إلى حيز الحاجيات والضروريات ، قد تكون من الأسباب الكامنة خلف تطيق أعداد لا يستهان

بها من الناس لزوجاتهم . وقد تكون سرعة التغير التي تسود المجتمعات اليوم هي التي تدفع على نحو خفي إلى الملل من استمرارية نوع من العلاقة – كالعلاقة الزوجية – وقد يكون الطلاق وسيلة للتزوج بأخرى لدى بعض الناس بدافع استكمال الرفاهية التي يتقبلون فيها هكذا ... هذه الأسباب التي تبدو مستغربة في زمان من الأزمنة الغابرة ، أو في بيئة من البيئات البعيدة عن تيارات الحضارة ، لكنها قد تكون جوهرية وأساسية في العصر الحاضر ، وفي بيئة تعيش في مركز الحضارة ، أو تتأثر بموجاتها العاتية .

عقولنا في حاجة إلى جانب الحساسية التي أشرنا إليها إلى أن تتمتع بقوة الاختراق حتى تصل إلى مركز الظاهرة ، ولا تتلهى بالقشور عن اللباب . ونحن نجد في هذا الإطار أننا طالما ركزنا في نعالجه كثير من الأمور على العرض ، وتركنا المرض، وكثيرا ما يكون هذا بسبب خداع العرض لنا ، أو بسبب خداعنا لأنفسنا أو لبعضنا ن وذلك حين يكون الحديث عن المرض صعبا أو غير ممكنّ!!

وعقولنا بعد هذا وذاك في حاجة – حتى تنتج الأفكار المعقدة ، وتتعامل مع الظواهر الكبرى – إلى الخيال الخصب الذي يحرر عقولنا من سجن الخبرات والمعلومات و المعطيات المتوفرة ، لا ليجعلها تسبح في فضاءات المستحيل واللامعقول ، ولكن ليجعلها تعمل قريبا من الخبرة في مناطق المظنون والمحتمل والبعيد ، مما ينفر منه العقل الكسول ، ويرى فيه العقل التقليدي الفقير بالأخيلة شيئا لا طائل منه .

كلما كانت الظواهر أكبر حجما وأعظم تعقيدا كانت العناصر التي يجب توليفها ونسجها في رؤية واحدة أكثر عددا وأعظم تنوعا . ولعلي أمثل لهذا بما ينظر إلية الآن على أنه قضية الساعة وهو (العولمة) . هذه الظاهرة تخيف معظم العقلاء في العالم بما تحمله من تهديد للتنوع الثقافي ومصالح الطبقات الضعيفة في المجتمعات المختلفة . وقد اختلفت أنظار المثقفين في القوة التي تعمم العولمة على العالم ، وفي أسرار قوتها الذاتية ، وفيما يمكن أن تفعله الشعوب والأمم حيالها . ويمكن هنا أن أعرض في كل نقطة من هذه النقاط الثلاث رؤيتين مختلفتين : رؤية تتسم بالتبسيط الشديد ، ورؤية تتعامل مع العولمة على أنها ظاهرة شديدة التعقيد ، كثيرة الالتواء ؛ ولذا فإن ما نصدره حولها من أحكام وتقييمات يجب أن يتسم بالتركيب والتوليف من معطيات ومؤشرات كثيرة . ملخص الرؤية التبسيطية هو : أن العولمة عبارة عن (أمركة) ليس أكثر ، وهي صيغة حديثة أبدعتها الولايات المتحدة من أجل ابتزاز العالم وفرض هيمنتها عليه ، والعولمة في هذه الرؤية لا تتمتع بأي قوة ذاتية ، وإنما هي تجسيدات لخطط وضعتها الولايات المتحدة ، وفي إمكانها أن تشطبها . ومن ثم فإن إيقاف العولمة عند حدود معينة يحتاج إلى أن يقف العام كله في وجه الولايات المتحدة حتى تتراجع عن دعمها ومساندتها للعولمة ، وبعضهم يرى أن العولمة هي شكل جديد من أشكال تآمر الغرب على الشرق ، وهي آخر صيغة اخترعها الغربيون للسيطرة على العالم النامي ؛ ومنه بالطبع العالم الإسلامي .

أما الرؤية المركبة والتي تعكس تآلف الجهد العقلي مع المؤشرات الثقافية والاجتماعية والتقنية والاقتصادية ، فيمكن أن نحدد معالمها من خلال النقاط الآتية :

1 - العولمة عبارة عن وضعية كونية جديدة ، تأخذ سمة تطويرية في السياق العام لتاريخ البشرية أكثر من أن نأخذ أي سمة أخرى . وهي في نظرنا ليست موجهة ضد العالم الإسلامي قصدا وإن كنت أظن أن المسلمين يكونون أشد المتضررين منها على الصعيد الثقافي والصعيد الاقتصادي .

2 - تستمد العولمة قوتها الحقيقية وبالتالي إرهابها للعالم من أنها ولدت ولادة طبيعية ، فهي نتيجة منطقية للتطور الهائل والسريع في وسائل الاتصال والبث الفضائي والتقدم في المجال الإلكتروني عامة ، كما أنها نتيجة منطقية للفيوض العظيمة في رؤوس الأموال والسلع ، والآلات ، مما يتطلب تفعيل نظام التجارة وتوسيع دوائره .

3 - لا يعني أن العولمة ظاهرة بريئة تماما ، فهذا غير ممكن تماما ؛ فالعالم الصناعي عامة مستفيد من العولمة أكثر بكثير من استفادة العالم النامي ، ولذا فإنه سوف يسعى بكل وسيلة إلى فتح الأسواق أمام منتجاته وتأمين الأغطية القانونية لها ، وقد يستخدم بعض الأساليب غير المشروعة ، حيث يشكل الحرص على دوام الانتعاش الاقتصادي محورا مهما في تفكير الرأسمالية .

أضف إلى هذا أن العالم الصناعي سوف يحاول إيجاد المناخات الثقافية التي ترحب بمنتجات العولمة وتحرض على استهلاكها ، وهذا مما يشكل ضررا بالغا على الثقافة الإسلامية ، والتي تجافي الثقافة التي تروج لها العولمة عند أكثر من نقطه مفصلية .

4 - العولمة ظاهرة تعكس معنى (القوة) إلى حد كبير ، ومن ثم فإن من يمتلك القوة الاقتصادية أو الثقافية أو الإعلامية أو السياسية ، سوف يستطيع المشاركة في العولمة ، ويحصل على جزء من كعكتها . ومع ذلك لن يحدث على نحو تام وكامل ، إلا أن عدم تنظيم ظاهرة العولمة، سيبقي الباب مفتوحا – بحدود – أمام من يريد الاستفادة من معطياتها وفرصها . ونحن نرى اليوم تكاثر المواقع الإسلامية على شبكة (الإنترنت) والتي تشكل ظاهرة مهمة من ظواهر العولمة .

5 - سيكون بإمكان المسلمين مقاومة الكثير من تحديات العولمة من خلال تحصين أنفسهم وأبنائهم عن طريق التربية الجيدة والتعليم المتفوق ، وعن طريق تدريبهم على الاستفادة من الفرص التي تتيحها العولمة . ولكن سيظل كل ذلك دون المستوى المطلوب لمواجهة العولمة .

إذا تأملنا في هذه الرؤية للعولمة وجدنا أنها رؤية توليفية تستند إذا تأملنا في هذه الرؤية للعولمة وجدنا أنها رؤية توليفية تستند إلى ما نعرفه من سنن الله – تعالى – في الخلق ، وإلى ما نعرفه عن طبيعة النظام الرأسمالي ، كما تستند إلى المعرفة بطبيعة النفس البشرية ، وإلى بعض المعطيات التقنية والإعلامية ، والسياسية والتاريخية ، وبعض التنبؤات المستقبلية .....

ونستطيع بعد هذا وذاك أن نقول : إن هذه الرؤية تشتمل على بعض العناصر الصلبة وبعض العناصر المرنة والرخوة ، كما أنها تترك مجالا للخطأ والاحتمال ، كما تفسح لردود أفعال الناس على العولمة ومجالا لتقييمها .

أحب أن أقول في النهاية : إن العقل حين يقوم بالتوليف بين إمكاناته الفطرية وثقافته المكتسبة وبين المعلومات والمعطيات الواردة من مجالات وتخصصات مختلفة ، يقدم لنا خدمة فكرية وثقافية عظيمة ، إذ يكسر جمود الرؤى الأحادية وإذ يوفر أفكارا ومفاهيم غنية وعميقة ومتماسكة ،لكن هذا النوع من العمل على أهميته وخطورته يظل عملا اجتهاديا معرضا للخطأ والزلل وسوء التقدير . ورؤيتنا لأعمال العقل على هذا النحو تشكل نواة لعمل فكري جديد يقوم على معطيات الفكر التو ليفي وعلى رؤيتنا النقدية له وهكذا إلى ما لانهاية . وبذلك يصبح التوليف مصدرا للنمو والانفتاح والتجديد والتوليد !.

العمل يثقف العقل

الإنسان ذات ،والبيئة بكل أشكالها واتساعها موضوع . وإن تسخير الله – جل وعلا – الطبيعة للإنسان لا يعني أنها صارت كما يريد ، ولا صارت ملكا له يتصرف فيها كما يتصرف بالنقود التي في جيبه ... وإنما يعني أنه – سبحانه – بث فيها خاصية الاستجابة للجهد البشري ، أي أنها تتمتع بدرجة من الطواعية لأعمالنا ، وهذا هو معنى (التسخير) . في كل نقطة يتلاقى فيها العمل الإنساني بالطبيعة على نحو يلامس خاصية الاستجابة والطواعية فيها تظهر ملاءمتها لنا ووجوه استفادتنا منها .
السائد **و**الظاهر أن (العقل) هو الذي يضع مخططات السيطرة على الطبيعة والبيئة بكل ما يحمله هذا من معنى . وربما كان هذا هو الذي دفع اليونان و
(قلدهم العرب في ذلك) إلى أن يهتموا بحركة العقل في معالجة المشكلات دون الاهتمام بالمباشرة العملية ورصد ما تفتقه من أفكار ، نعم ، إن ما يميز الإنسان عن الحيوان أنه يخطط لعمله ويتصور خرائط تحركاته قبل أن ينطلق ويتحرك ، أما الحيوان فإنه يتحرك بدافع الغريزة ، وهو غير قادر على تطوير وجوه انتفاعه بما حوله ، بل إن انتفاعه بالبيئة المحيطة يكون على وجه الإبادة والتخريب ، ولذا فإنه يظل غريبا عنها ومعاديا لها ، وليس كذلك الإنسان .
نحن هنا نحاول أن نسير في عكس الاتجاه السائد والظاهر من خلال رصد الآثار التي يتركها العمل في تثقيف العقل وتطويره ، وجعل طروحاته أكثر منطقية وواقعية ، بالإضافة إلى حثه على إطلاق وتحرير طاقاته الجبارة ، والحقيقة أن هذه القضية ذات ذيول وامتدادات واسعة ، وسأعرض هنا لبعض النقاط المهمة من خلال الحروف الصغيرة الآتية :
1 - إن هذه الدنيا دار ابتلاء، ومن تجليات ذلك الابتلاء أننا لا ننمو ولا نتطور ولا نبدع ولا نكتشف إلا من خلال العمل والحركة والنشاط الدائب. وإذا نظرنا في التاريخ وفي حياتنا المعاصرة وجدنا أن الأشخاص الأقل بذلاً للجهد في أي مجال من المجالات هم الأشخاص الأكثر حرماناًً من فرص التقدم والتجديد. وعلى العكس من هذا فإن الأشخاص الأكثر نشاطاًً وحيوية هم الأشخاص الأكثر امتلاكاً للأفكار والمفاهيم الجديدة.
وقد صار يعًًُتقد على نطاق واسع أنه كلما كانت درجة فاعليتنا أعلى كنا أكثر

جدارة بالتوصل إلى النظريات الجديدة، وأكثر جدارة باكتشاف القوانين والنظم التي تجعل البيئة أشد طواعية وأعظم استجابة لطموحاتنا ورغباتنا، وكأن البيئة المحيطة (لبن دسم) اختلطت كل عناصره وامتزجت على نحو كامل، وكأن حركتنا وجهودنا في مناكب الأرض (خض) لذلك اللبن، نحصل من خلاله على فرز لبعض عناصره عن بعض.

2 - يشكل العمل وسيلة من وسائل تحقيق الذات، فنحن من خلال بذل الجهد والقيام بالأنشطة المختلفة نكتشف المسافات الفاصلة بيننا وبين محيطنا، حيث نلمس وجوه التباين والتعارض والتقارب، ونعرف ما هو قريب المتناول، كما نعرف البعيد والمستعصي، إننا نعمق الوعي بطبيعة الاختلاف بين الذات والموضوع من خلال التعرف المزدوج على أنفسنا وعلى الطبيعة المسخرة لنا.

الممارسة تشكل النقطة التي يلتقي فيها العقل بأخيلته ومثالياته وتصوراته وأوهامه بالطبيعة ، بقوانينها الحاسمة وبتمنعاتها وصدودها واحتجاجها . ومن خلال ذلك اللقاء يتم تخفيض مستوى مثالية العقل ومستوى تطلعات البشر ، كما يتم اكتشاف الكثير من الإمكانات الكامنة التي كان العقل غافلا عنها أو بعيدا ن إدراكها

الفوضويون والكسالى وأولئك الذين يعيشون في بيئات صعبة والذين نشئوا في أسر محطمة ، تسيطر على تصوراتهم ومقارباتهم للأشياء 0 (عقلية المستحيل)ولذا فإن عقولهم تتجه باستمرار نحو إدراك الأبواب المقفلة وإدراك العوائق والحواجز التي توقف تقدمهم

من خلال العمل المتدرج تتضاءل عقلية المستحيل وتغمر الناس مشاعر التفاؤل بإمكانية الإنجاز والتحسن إننا لو طلبنا من فتى في الخامسة اسمه (خالد) أن يكتب اسمه ، فإنه سينظر إلى ذلك أنه مستحيل ، وسيظل يشعر بذلك مدى الحياة ما لم ندربه على كتابة الخاء والألف واللام والدال ، وما لم نعلمه كيف يشبكها

.

لتشكل كلمة واحدة ذات دلالة ، وقد قال أحد الحكماء : " عقل الكسلان بيت الشيطان " فلدى الذين لا يعملون بجدية ولا ينشطون على وجه حسن عقول مسكونة بوساوس الشياطين ، وجموحات الأخيلة والتصورات الفاسدة ، التي لا يعرفون كيف يختبرونها ويتخلصون بالتالي منها . وفي المقابل فإننا من خلال العمل والتجارب والتراكم المعرفي ، ومن خلال معرفتنا بسنن الله – تعالى – والتي تبرز لنا طبائع الأشياء ،يرتقي لدينا ما أسمية ب(فقه الطرق المسدودة) وهو فقه عظيم لا نجده في أي كتاب ، وإنما في سفر الوجود الهائل والمترامي ، حيث إننا من خلال الممارسة العلمية نكتشف ما لا يمكن الحصول عليه ، وبذلك الاكتشاف نقترب من معرفه ما ه متاح ، كما أننا نوفر على أنفسنا عناء (الحرث في البحر) حيث ألف الكثيرون منا تبديد الجهد والوقت والمال في محاولات الوصول إلى أشياء ليس إلى الحصول عليها أي سبيل !

3 - التقدم العلمي والتقني الذي تشهده البشرية اليوم على نحو مطرد مدين للتشوق إلى اجتراح الغموض وفك أسرار الطبيعة وكل الأشياء المحيطة بنا . ومن الواضح أن الأمم الأكثر تشوقا للمعرفة والأكثر بحثا عن القوانين التي تحكم الوجود هي الأمم التي تقود ركب الحضارة اليوم ؛ وذلك لأن الرغبة الجامحة هي معرفة طبائع الأشياء ومنطقها والعلاقات التي تربط بينها هي التي كشفت عن حجم التحدي والمنع الذي علينا أن نواجهه ، حتى نصل إلى ثمرات التسخير الذي امتن الله – تعالى – علينا . التأبي والاستعصاء الذي أظهرته الطبيعة عمل من جهته على تحريض الذهن على إنتاج المفاهيم والخطط والأساليب والأدوات التي تساعد الإنسان على النصر في معركته القاسية والطويلة في سبيل فهم حقيقة ما يجري ، والاستفادة منه على أحسن وجه ممكن .

وهكذا فإن الآلات والمعدات التي اخترعها الإنسان مدت في سلطان اليد ، ومدت السيارات والطائرات ... في سلطان الرجل ، كما مد الهاتف في سلطان اللسان ، حيث صار الإنسان قادرا على إيصال صوته إلى أمكنة بعيدة ، ومد التلفاز في سلطان العين والأذن وهكذا ...
وقد صار من المسّلم به أن هناك علاقة عكسية بين الجهد العضلي والجهد العقلي ، فكلما تعقد الجهد العقلي وتكاثف وصار أحسن تنظيما خف الجهد العضلي وتقلص إلى حد التلاشي أحيانا . كما صار بذل الجهد العقلي والتنظيمي المكثف أمارة على تقدم الأمم في الميادين المادية المختلفة ، وصار بذلك بذل المزيد من الجهد البدني من اختصاص الأمم البدائية والنامية .
ومن الواضح أن التقدم التقني لدى أمة ، ما هو إلا مكافأة سخية تنالها على الإنجازات الفكرية والإبداعية الناجحة عن الاستخدام الجيد للإمكانات الذهنية . والأمم المختلفة تقنيا هي أمم لم تستطع استخدام طاقاتها العقلية على النحو المطلوب.
إن من المهم جدا أن ندرك أن الحقائق العلمية لا تكتشف في مختبرات العقل ولا من خلال عصر الذهن ، وإنما تكتشف من خلال العمل والممارسة والجهد المتتابع الذي يتم تحت إشراف العقل المبدع .
وقد آن أوان اليقين بأن التفكير خارج سياقات العمل وخارج التجربة لا يأتي إلا بفروض شكلية وحقائق هشة ، ولهذا فإنني لا أبالغ إذا قلت : إن كثيرا من تأزمات الفكر هو في الأساس من أزمات الأيدي العاطلة عن العمل ، وأزمات المتابعات السطحية والرخوة والقصيرة لقضايا لا يجدي معها سوى المتابعة الطويلة والجادة والمستقصية . وإذا أردنا تجاوز الكثير من أزماتنا التي ندعوها فكرية وأخلاقية ودعوية واجتماعية ، فإن علينا أن نعمل _ فيما ينبغي أن نعمله – على بث روح تعشق العمل الشاق ، ورفع مستوى الأدوار في مختلف مؤسساتنا .
4 - لا تقتصر استفاده العقل من العمل الشاق على التحريض على الإبداع والاكتشاف ، وإنما يستفيد أيضا القدرة على التوقع والتنبؤ بالمستقبل والتخطيط له .

من خلال الممارسة والخبرة المتولدة عنها يبني الإنسان إطارا لتوقع ما يمكن أن يحدث ؛ فحين يجد الواحد منا أن يقرأ ألف صفحة في الشهر ، أو ينفق عشرة ألاف أو يحرث خمسة أفدنة ، فإنه يستطيع أن يتوقع ما يمكن أن يقوم به من هذه الأمور خلال الأشهر القادمة . ولا يمكن للعقل أن يجد أي بديل يغنيه عن هذه الإطارات التي تعقل خياله ، وتوفر له معطيات معقولة وتقريبية يبني من خلالها تصوراته لما يمكن أن يقع في المستقبل .

هذه الخبرة التي تتولد عن الممارسة هي رأسمال ضخم للأمم والأفراد ، إنها تولد نوعا من البصيرة لدى صاحبها ، كما تولد لديه الثقة بصحة رؤاه المستقبلية .

فهل نستطيع أن نقول : إن سببا مهما لضعف اهتماماتنا بالمستقبل والتخطيط له يعود إلى ضآلة الخبرة الناجمة عن ضعف الممارسة وقلة الأعمال الشاقة التي يقوم بها ؟

5 - في فطرتنا ميل إلى السكون والتكيف مع كل ما هو موجود والرضا به ؛ لأن ذلك يوفر علينا الجهد الذي يتطلبه التكيف مع الأشياء الجديدة ؛ لكن السكون نوع من العدم ولاضمحلال وهو مظهر من مظاهر الموت .

وقد شاءت حكمة الله – تعالى – أن يكون النمو من خلال الحركة ، وليس من خلال التجمد والتكلس ؛ يقول الله – جلا وعلا : وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ)

إن الماء حين يأتي إلى الأرض اليابسة الميتة تنبت فيها الحياة والحركة والنمو والإنبات ، وهكذا أنشطة الناس وأعمالهم – مهما كانت صغيرة ومحدودة – تأتي دائما بما يغير في المعطيات الموجودة ، وإن كان ذلك لا يكون واضحا دائما ؛ إنها تزود عالمنا الإنساني والطبيعي بأشياء جديدة ، فنحن من خلال العمل تزيد في حصيلتنا من (المال) الذي دورة يمكننا من توسيع دائرة الاستثمار ، كما أنه يغير في أحوالنا المعيشية . وقد ينقلنا من شريحة اجتماعية إلى أخرى ، فيترتب على ذلك بناء علاقات جديدة . والمال أيضا يمكننا من تطوير الأدوات التي يستخدمها في أنشطتنا المختلفة ، وهذا من جهته يولد لنا مشكلات جديدة ، وتلك المشكلات تبعث العقل على أن يقوم بتقييم تلك المشكلات وتشخيصها ، كما تبعثه على التماس الحلول لها ، وينعكس كل ذلك على السلم القيمي لدينا ، فتتقدم أشياء لتصبح في الطليعة ، وتتوارى أشياء لتصح كالمغلية أو المهملة .

ونستطيع أن نستنتج من كل هذا أن فرصة الأشخاص الأكثر حيوية ونشاطا في تنمية بنياتهم العقلية وإثرائها بالمفاهيم والخبرات الجديدة ، أكبر بكثير من فرصة أولئك الخاملين وأولئك الذين لا يأبهون بإيقاعات العصر المتسارعة .

إن كل أفكارنا وانطباعاتنا معرضة للموت خنقا إذا عزلناها عن الواقع ، وحرمناها مما يمكن أن تمدها ه الممارسة من تمحيص وتعديل وتطوير . وشواهد الأحوال ناطقة بهذا ؛ فالأفكار المتأسنة والفرضيات المضحكة والطروحات العجيبة كثيرا ما تظل في حيازة أولئك الذين عزلوا أنفسهم عن تيار الحياة ، فلم يعطوها ، ولم يأخذوا منها إلا في أضيق نطاق ّ!.

العقلية المستقبلية

طبيعة التدين الحق تجعل من المسلم رجلا مستقبليا من الطراز الرفيع ، فهو يضبط إيقاع حياته في كل أحوال يقظته وفق ما يعتقد أنه ينجيه في الآخرة ، وهذا يجعل نظرة دائما مشدودا نحو المستقبل ، كما يجعل قدرته على التضحية بالحاضر من أجل المستقبل أمرا مألوفا وميسورا ؛ لكن لا يخفى أن قسما كبيرا من المسلمين منقوص الالتزام ، كما أن قسما كبيرا من الملتزمين التزاما جيدا لم يستطيعوا تعميم مسألة المستقبلية على أمورهم الدنيوية . والمحصلة النهائية لكل هذا هي ضعف الاهتمام بالمستقبل . ومع أن هذا يتحسن باستمرار إلا أن هناك شرائح واسعة من المسلمين تحول بينهم وبين الرؤية المستقبلية الأمية والظروف الصعبة التي يعيشون فيها . وعلى كل حال فإن بين أمه الإسلام وبين الأمم المتقدمة مسافات واسعة في هذا الشأن .
الاهتمام بالمستقبل أحد المحرضات الأساسية على التقدم الذي نشهده في زماننا هذا ، كما أنه يشكل قاعدة مهمة لكثير من التحولات التي يجب أن تتم على صعيدنا الشخصي ، وعلى صعيد الأمة على نحو عام . لو تساءلنا عن أهم ما يشكل العقلية المستقبلية وأهم المعتقدات التي يحملها الرجل المستقبلي لوجدنا أنها كثيرة ، لكن سنكتفي بعرض ما نراه أكثر أهمية منها ، وذلك عبر ملاحظات التالية :

1 - حتى توجد العقول التي تتطلع إلى المستقبل ، وتتحفز للعمل من أجله ، فإنه ينبغي أولا إشاعة الثقافة المستقبلية ، أي ثقافة التي تتحدث عن التطورات المنتظرة للقوى والمعطيات والمشكلات الحاضرة . ومن المؤسف أن هذه الثقافة ضعيفة جدا في العالم الإسلامي ، حيث إن (المعرفة الرقمية) التي تشخص الواقع من خلال الإحصاء واهية وهشة ، ومن غير معرفة الواقع يصعب توقع المستقبل ، أو هو مستحيل ، أضف إلى هذا أن المعارف المتعلقة بالعلوم والتقنية والاختراع والابتكار هي المعارف المتوقع لها أن تكون الأكثر تأثيرا في صياغة المستقبل في جميع مجالات الحياة ، وبما أم مساهماتنا في هذه الأمور محدودة ، فإن معارفنا فيها ستظل هي الأخرى محدودة .

هذه الوضعية جعلت البنية العقلية لدى كثير من أبناء الأمة ضعيفة الاستجابة والتفاعل مع كل ما يقال : إنه أمور مستقبلية مهمة . وهناك – إلى جانب هذا – اهتمام زائد عن الحد لدى كثير من أبناء الأمة بالماضي على صعيد الإنجازات وعلى صعيد الأزمات والمشكلات ، وكم من الأوقات يذهب سدى في تفسير الحوادث والمواقف التاريخية ، ومحاولة الاستدلال بها والتنظير على أساسها ، دون الحصول على أي مردود يذكر ! ولو أن ذلك صرف في تعميق الفهم للمنهج الرباني الأقوم واستشفاف مراميه ومدلولاته ، أو صرف في تعميق الرؤية لسنن الله – تعالى – في الخلق أو محاولة فهم الواقع وما يمليه علينا ، وما يمكن أن

يتطور إليه لكان أجدى علينا بكثر من ذلك . وعلى كل حال فالفرصة ما زالت ماثلة ، وعلينا أن نعرف كيف نستدرك أمورنا .
3-حتى تكون رؤية الواحد منا للمستقبل في نطاق المعقول والممكن والملائم ، فإنه يجب تكوينها في إطار معرفتنا لواقعنا الشخصي ، حيث إن المستقبل في كثير من الأحيان لا يعدو أن يكون تطويرا للواقع ومنبثقا من معطياته ، حيث يشكل ما نملكه ألآن رأس المال الذي سنستثمره فيما نستقبل من أيام . ورأس المال هذا يتجسد على صعيدنا الشخصي فيما نملك من رؤية واضحة لحدود الظروف والأوضاع التي سنكون فيها في المستقبل ، بالإضافة إلى ما نلك من عزيمة ودوافع واهتمامات ومفاهيم ، وما نملكه من إمكانات مادية وجسدية .
لا نغالي إذا قلنا : إن معظم الناس لم يتوصلوا بعد إلى اكتشاف ذواتهم ، أي معرفة الميزات ونقاط الضعف التي لديهم ، ومعظم الناس كذلك غير قادرين على تقييم إنجازاتهم وتقييم وضعيتهم العامة؛ وهذا كله يؤدي إلى أن تكون رؤيتهم للمستقبل غامضة ، ومشوبة بالأوهام والتطلعات التي لا تنطلق من معطيات صلبة ؛ وقد قال أحدهم : إذا أردت أن تعرف المستقبل ، فانظر إلى الماضي .
وقال آخر : إذا كنت لا تعرف أين تقف الآن فلن تعرف إلى أين أنت ذاهب .
بناء على كل هذا فإن بناء رؤية للمستقبل يتطلب الارتكاز على محاولات تعميق رؤيتنا لدلالات إنجازاتنا التاريخية وتقييمها ، وعلى محاولات فهم الواقع الموضوعي الذي نعيش فيه الآن ، ففي ضوء مؤشرات هذه وتلك تلوح معالم المستقبل المنشود.
4-يملك (المزارع) عقلية مستقبلية واضحة جدا ، فهو يعرف يقينا أن الحصاد غير ممكن من غير ممارسة الزراعة بطريقة جيدة ، كما أنه لديه معرفة حسنه بما يغله الفدان الواحد من أرضه في كل نوع من المزروعات التي يزرعها ، وهو يعرف أيضا أنه ليس كل من زرع حصد ، فقد لا تمطر السماء تلك السنة ، وقد يصاب زرعه بآفة ، ومع هذا فإنه يبذل جهده في توفير كل الشروط والأسباب التي تمكنه من الحصول على موسم جيد .
نحن في سلوكنا اليومي وفي آمالنا وتطلعاتنا إلى غد مشرق في حاجة إلى هذه الرؤية التي توجه سلوك المزارع ؛ لأننا بها نتخلص من أوهام الطفرة ، وضربة الحظ والتحسن المفاجئ للظروف والمعطيات .والحقيقة أن كل واحد منا واجه في حياته أشخاصا كثيرين لا يكادون يحصون ، يحملون الكثير من الأحلام الوردية مع القليل جدا من العمل الجيد ، وتأتي أيام وتذهب سنوات ، وهم غارقون في أحلامهم الجميلة دون أن يتحقق شيء مما يتوهمونه ، وهذه حالة تدعو إلى الإشفاق !
نحن في حاجة إلى عقيدة راسخة بأنه لا سبيل إلى مستقبل أفضل من الواقع الذي نعيشه إلا عن طريق تحسين القرارات والأنشطة التي تحكم وتكون واقعنا الحالي . نعم ، إن الله – جل وعلا – قد يبتلي عبده ، ويختبره ، فلا تكون النتائج مكافئه للجهود التي بذلها ، وقد يمن الله – تعالى – على عبد بعطايا وهبات وفيرة لم يؤهل نفسه لنيلها ، وذلك كله لحكمة بالغة ، لكن ذلك لا يشكل القاعدة ، بل يشكل

الاستثناء الذي يؤكد القاعدة ، لكن أصحاب الفكر الخوارقي ، يتخذون من هذا الاستثناء قاعدة يتكلون عليها ، ولذا فإن أحلامهم دائما أكبر من إنجازاتهم !
نحن في حاجة أيضا إلى الإيمان بأهمية العمل التراكمي – مهما كان ضئيلا – حيث نشعر آنذاك بتداخل المستقبل مع الحاضر ، إننا كلما حسنا الالتزام لدينا وحسنا أداءنا وعلاقتنا اجتاحنا شعور بالثقة بأننا نتقدم ، وصرنا قادرين على تخمين أمد لحدوث الأشياء الجميلة التي نحب الحصول عليها .دعونا نتخلص من التصورات والتقديرات الذهنية التي تعودنا من خلالها إدراك الواقع والقبض عليه إلى الصيرورة إلى الاقتراب من الواقع من خلال الأعمال الجيدة والإيجابية التي نملأ بها حياتنا اليومية ، وسوف نشعر أن المقاربة العملية تعطينا من الدلالات في زور الواقع أكثر بكثير مما نحصل عليه من خلال التأمل من معطيات ومفاهيم غامضة . دعونا نجرب التخلص من التنبؤ بالمستقبل ، ولنتعامل معه من خلال إدراكنا لحقيقة ما نقدمه للإسهام في تشكيله ، وآنذاك تتردد رؤيتنا للمستقبل – بإذن الله تعالى – بين اليقين والظن القوي ، عوضا عن أن تتردد بين الظن والوهم .
5 – أثبت ما لا يحصى من التجارب أن إخفاق كثير من الناس وعدم تنبؤ المكانة التي تؤهلهم لها إمكاناتهم إنما يعود إلى أنهم يتصرفون بعفوية كاملة، ويتعاملون مع المستقبل بفوضى تامة ، فهم لا يعرفون ماذا يريدون ، ولديهم دائما نوع من الخوف من الالتزام بتحقيق أهداف محددة ، خشية أن يضطرهم ذلك إلى تغيير بعض أنماط معيشتهم ، كما أنهم لا يلزمون أنفسهم بالعمل ساعات محدودة في اليوم أو الأسبوع أو الشهر ... وهذا كله يؤدي في النهاية إلى شيء واحد هو انخفاض إنتاجيتهم إلى حد مربع !
الحقيقة إن الإنسان إذا عجز عن تخطيط حياته الشخصية ، فإنه بذلك لا يكون في موقف محايد ، وإنما يكون في منزله الذي يخطط للإخفاق ،وفي المقابل فإن الواحد منا بمجرد البدء بوضع خطة للمستقبل ، فإنه يبدأ بقطف ثمراتها ، حيث تنمو لديه حساسية خاصة نحو الوقوع في الخطأ ، ونحو الإهمال الذي يشكل العدو اللدود للاهتمام بالحاضر والمستقبل .
إن كثيرا من العظماء والمشاهير يشعرون أنهم مدينون في نجاحهم وتفوقهم الباهر إلى إلزامهم أنفسهم بخطط واضحة للعمل والأداء ، لأن ذلك الإلزام يقلل من حجم هدر الوقت ، ويتيح لهم تقدير ما يمكن أن ينجزوه في العام الواحد ، وقد صار لديهم إحساس بتراكم الإنجازات وتعاظمها مما زاد في ثقتهم بأنفسهم وجعل رؤيتهم للمستقبل أكثر تفاؤلا ووضوحا.
من المهم أن تكون برامجنا وخططنا مكتوبة على ورق ، ونحاول أضافه إليها والتعديل فيها بحسب المعطيات والمؤشرات العملية التي رد إلينا أثناء التنفيذ .
ومهما اهتممنا بالتفاصيل فإن ذلك سيكون لصالح الخطة ، كما أنه سيحفزنا أكثر على العناية بالتنفيذ .
إن الآمال العظيمة والإنجازات العظيمة في حاجة إلى خطط عظيمة ، فلنعط للتخطيط والبرمجة في حياتنا ما يستحقانه من جهد ووقت .

انفتاح الحقيقة على العلاقات

امتلاك العقلية المعاصرة يقتضي دائما فهم التطورات التي تطرأ على بنية التفكير العالمي ، واستيعاب الطروحات الجديدة التي تخترق نظم الرؤية ونظم التعامل مع الحقائق والمعطيات المتجددة . وهذا الفهم شرط ضروري لصياغة خطاب إسلامي معاصر وقادر على التأثير في الآخر ، كما أنه قادر على المساهمة في بناء العقلية المستقبلية للأجيال الجديدة .

كان قصور العقل ومحدودية إدراكه يقف حاجزا دون حصوله على رؤية كلية تحيط بالقضايا والموضوعات المختلفة ، بل إن ذلك القصور كان يحول دائما دون وعي العقل بإمكاناته ومشكلاته الخاصة . ولكن مع اتساع الممارسة وغنى التجارب وتراكم الخبرات تحسن الوضع ، ولكن ما زال بينه وبين النضج الجيد أمداء واسعة .

كان العقل القديم يحاول دائما أن يدرك الحقائق على أنها جواهر معزولة ، وكان الناس يعدون النجاح في الفصل بين الأشياء أحد أهم الإنجازات الفكرية على صعيد فهم مفردات الوجود .

ولعلي أحاول شرح هذه القضية عبر المفردتين التاليتين :

1 - إذا اعترفنا بأن من قصور العقل البشري أنه يبدي دائما العجز عن الإحاطة بالقضايا الكبرى ، فإن علينا أن نبقي الباب مفتوحا أمام الأفكار والملاحظات الجديدة التي تتعلق بالحقائق التي تؤمن بها . تلك الملاحظات تأتي نتيجة تبلور أهداف جديدة أو اكتشافات جديدة لسنن الله- تعالى – في الخلق ، أو الحصول على معطيات ومعلومات جديدة ؛ وعلى سبيل المثال : فإن الناس قديما كانوا كثيرا ما يقيسون جودة التعليم من خلال الأستاذ الذي يعلم ، أو من خلال الكتاب الذي يدرس ، أو من خلال طول ملازمة الطالب لشيخه .

وأعتقد أن تلك المقاييس لم تكن دقيقة ولا حاسمة ؛ وقد كان الربط بين التعلم والحصول على عمل أمرا واهيا وفي أغلب الأحيان غير موجود . أما اليوم فإن قوة التعليم تقاس من خلال المخرجات ، أي من خلال نوعية الطلاب الذين يتخرجون من المؤسسات التعليمية ، ومدى نجاح تلك المؤسسات في تأهيلهم للانخراط في سوق العمل أو الحصول على لقمة العيش . إذن تغيرت مواصفات التعليم الجيد من خلال تغير أهدافه وتغير علاقاته بفرص العمل وتحقيق الذات .

ونستطيع أن نقول : إن في أفريقيا – مثلا الكثير من الشعوب الإسلامية التي لم تغير نظرتها للتعليم وفق المعطيات المعاصرة ، مما جعلها لا تسمه لهذا النشاط الأساسي والحيوي بأن يتطور من خلال انفتاحه على الأهداف الجديدة التي رسمتها الحضارة المعاصرة . وكانت حصيلة ذلك تعليما لا ينمي الشخصية ، ولا يبني العقلية ، ولا يساعد على النجاح الاجتماعي ، كمالا يساعد على المساهمة في بناء الحياة الحديثة !

2-إذا عدنا إلى الماضي وجدنا أن أهل كل علم ، وعلماء كل نظام كانوا منهمكين في صياغة قواعده وقوا نية ومقولاته بناء على المعطيات التي تراكمت لديهم في

نطاق العلم أو النظام نفسه ، وقلما كانوا يهتمون بشبكة العلاقات التي تربط النظام المعرفي أو الادراي أو الاجتماعي أو الاقتصادي بغيره من النظم ، وحين يلاحظون تلك العلاقات فإن كثيرا من ملاحظاتهم يكون بعيدا عن الصواب نظرا لضآلة المعرفة التي كانت متوفرة آنذاك .
أما اليوم فإن العقل المعاصر صار يعطي لمسألة العلاقات وانعكاساتها أهمية كبرى . وقد صار بإمكاننا القول : إن تطور أي على أو أي ظاهرة بات يخضع لنوعين من الشروط :
شروط داخلية تنبع من أعماق العلم أو الظاهرة . وشروط خارجية تؤثر فيه عبر العلاقات التي تربطه بالنظم أو العلوم أو الظواهر الأخرى ، وإذا سلمنا بهذا فإننا سنجد أن كل العلوم الإنسانية والنظم الحياتية تقبل نوعا من المراجعة والتحسين والإغناء ، كلم استطعنا هدم الأسوار التي أقمناها حولها بسبب ضآلة معرفتنا .
في علم الفقه العديد من الأحكام المبنية على معلومات طبية غير صحيحة ، وانفتاح علم الفقه على علم الطب سوف يجعل الفقهاء يعيدون النظر فيها . وفي مجال السياسة إن القدماء يؤملون الكثير الكثير من وراء الاستقامة الشخصية للحكم ، ولذلك فإنهم ذكروا الكثير من التفصيلات في صفاته وشروطه وواجباته ، وكان ذلك تعبيرا عن نظرة جزئية مغلقة . أما اليوم فإن الرؤية العامة تعطي أهمية غير قليلة للاستقامة الشخصية للحاكم ، لكن أضيف إليها الاهتمام بطبيعة النظم والقوانين التي تحكم عمل الدولة ، إلى جانب الاهتمام بطبيعة العلاقة بين الدولة والشعب ، ومدى ما يسود تلك العلاقة من مكاشفة ومصارحة وتعاون 000 أي أن مقياس صلاح الدولة لم يعد مقياسا مغلقا عل السمات الشخصية للحاكم ، وإنما أضيف إلية مقاييس واعتبارات أخرى .
ويظل التاريخ – بما هو انعكاس للنشاط الإنساني ، وإبراز له – الحقل الأكثر حاجة إلى الانفتاح على العلوم المختلفة . ولهذا الاعتبار فإن انغلاق المؤرخين في الماضي وعدم استعانتهم بالعلوم المختلفة من أجل أفضل إدراك ممكن للواقعة التاريخية ، أدى إلى أن تزخر أعمالهم بالخرافات والمجازفات والأرقام الهائلة والتفسيرات الفاسدة . وفي اعتقادي أن إعادة كتابة التاريخ التي يطالب بها كثير من الناس اليوم ستكون محدودة الجدوى إذا لم يعتمد في تمحيص الحوادث التاريخية على الاستفادة من التقدم الجيد الذي حصل على صعيد معرفة سنن- الله تعالى – في الخلق ، بالإضافة إلى التقدم الذي حصل في علوم النفس والاجتماع والأخلاق والسياسة والاقتصاد .
وإن الذي يدعونا إلى هذا القول هو إيماننا بأن التاريخ سجل لسلوك الإنسان الذي يتمتع بالحاسة الأخلاقية ، كما يرضخ في كثير من الأحيان لأهوائه ورغباته ، الإنسان الذي ينشط ويعمل في إطار مجتمع وفي ظل دولة ، الإنسان الذي يسترشد بالوحي تارة ، ويهزم أمام الشيطان تارة أخرى ، والذي يخضع للعرف الاجتماعي أحيانا ويتمرد عليه حينا ، الإنسان الذي لا يكف عن لإقامة الموازنات ، كما لا يفتأ يحاول في تحقيق مصالحة في إطار مبادئه ، لكنه لا يملك أي ضمانه

للنجاح في ذلك .إذا انفتح المؤرخ المحنك على علوم الإنسان فإنه سيعيد النظر في الكثير مما يظن أنه عبارة عن حقائق تاريخية صافية .
إذا أردنا للحقائق التي نرتكز عليها في مسيرتنا الحياتية أن تزداد وضوحا ورسوخا ، فإن ذلك لن يتأتى لنا من خلال الخوف على تلك الحقائق وعزلها والانهماك في البرهنة على صحتها ، وإنما من خلال فهم نوعية العلاقات التي تربطها بغيرها من حقائق الوجود ونظم الحياة .
الحقائق تزداد رسوخا من خلال نموها ، وليس من خلال جمودها ، ونموها يأتي من خلال إبراز الخلاف وتعددية الرؤية حولها ، حيث يكسبها ذلك نوعا من التألق المتجدد ، ويقلل من نسبة اليقين المصطنع الذي قد نضيفه عليها لأسباب غير موضوعية .
إن مما تراكم في تجاربنا وخبراتنا أن كثيرا من الحقائق والأفكار والمفاهيم يصاب بالذبول والتيبس والاختناق ما لم نقم بإنعاشه من خلال تعريضه لأشعه النقد ، وما لم نمده بإكسير الشباب من خلال جعله جزءا من منظومة علوم الحياة التي شاء لها الباري – جلا وعلا – أن تستمد حيويتها ونوها من تداخلها وتلاقحها ومن العلاقات الاعتمادية التي تنتظمها .

المعرفة خبز الدماغ

يسود لدى الشعوب التي تغلب عليها تقاليد الثقافة الشفاهية نوع من الإطراء الشديد للعقل بوصفه ذلك الجوهر الفرد الذي يتمتع بقدرات عظيمة وإمكانات واسعة في فهم الأمور والحكم عليها ، كما أنها تنظر إلية على أنه لدى بعض الناس شيء مكتمل أو شبه مكتمل ؛ فالذي يحكم له بأنه (عاقل) يتصرف تصرفات حكيمة ، تبدي فيها عقلانيته منذ وقت مبكر من عمره . ويترتب على هذه النظرة على نحو ألي انعدام الشعور بالحاجة إلى تثقيف العقل وتغديتة بالمعارف ، بل ربما سرت بين تلك الشعوب مقولات تقلل من قيمة المعرفة بالنسبة إلى أولئك الذين حرموا الموهبة والإمكانات العقلية الممتازة !
وسبب هذه النظرة ربما عاد إلى ضآلة المعرفة المنظمة المتاحة لهم والمتداولة بين أيديهم ، حيث يحرم وعيهم من رؤية ما يفعله الاختصاص والتعمق بين أيديهم ، حيث يحرم من رؤية ما يفعله الاختصاص والتعمق المعرفي من التفوق في الإدراك والتحليل ، على حين أن البيئات التي ينتشر فيها العلم على نحو جيد وواسع تتمتع بفضيلة المقارنة بين فوائد الإمكانات العقلية الفطرية وفوائد المعارف المكتسبة ، ويتولد مع تلك المقارنة ومنها اهتمامات متزايدة بالحصول على معرفة وتنميتها .
القران الكريم ثقف الأمة برؤية واضحة في هذه القضية ، حيث ألقى في روع المسلمين أن العقل الجيد ليس شيئا ثابتا مكتملا إما أن نملكه أو لا نملكه ، وإنما هو شيء قابل للتنمية والنضج التدريجي والتراكمي ، من خلال التأمل والنظر والحوار وتغذيته بالمعارف المختلفة .

وتفيد آيات عديدة أن التقدم العقلي يظل مرجوا ومأمولا من أولئك الذين يفتحون أبصارهم وأذهانهم لرؤية بديع صنع الله – تعالى – في الخلق وبالغ حكمته في الوجود ، يقول – سبحانه : (كذلك يحيي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون) .
ويقول: (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون)

أي إن الذين يفهمون مغزى الأمثال الذي ضربت لأجله هم الراسخون في العلم ، المتدبرون لما يتلى وما يشاهدونه من آيات الله تعالى – ويوضح لنا القران الكريم في موضع آخر أن الجهل يجعل الإنسان يسلك السلوك الاجتماعي غير اللائق وغير المتحضر ، يقول – سبحانه : إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون .

فرفع الصوت والنداء من بعيد والتصرف على السجية بعيدا عن التهذيب ، لا يعود إلى الغباء لدى أولئك الأعراب ، وإنما يعود إلى جهلهم بمقام النبي صلى الله عليه وسلم – وعدم معرفتهم بالأسلوب الذي يلاءم الذوق المتمدن الذي يخبره سكان الحضر .
وقد أثمرت هذه النظرة إلى أهمية المعرفة بالنسبة إلى الارتقاء بالعقل اندفاعا هائلا لدى المسلمين نحو طلب العلم والبذل في سبيله ، وكان ذلك أحد الركائز الأساسية للحضارة الإسلامية العتيدة ، ولكن هذه الرؤية شابها شيء من الغبش نتيجة عاملين اثنين :

1 - **سوء الأحوال ودخول** جميع دول العالم الإسلامي في مرحلة انحطاط حضاري وثقافي ، سادت فيها الأمية من جديد وتراجع دور الوعي بحقائق الوجود ، فعاد تجميد العقل والتهوين من شأن العلم من جديد .
2 - **تأثر** فلاسفة المسلمين بالفكر التجريدي الذي أخذوه عن فلاسفة اليونان ، وهو فكر يبتعد عن الواقع والتجربة في فهم الحياة والبيئة المحيطة ، والتعامل مع المشكلات إلى حد النفور والعداء . وقد بلغ بهم الغرور – على حد قول ابن خلدون – بالاعتماد على العقل وحده واستغنائه عن الواقع إلى حد جعل ابن سينا وابن طفيل يتصوران حي بن يقظان قادرا على تحصيل المعرفة ، وهو في جزيرة منقطع عن الناس وعن الحياة ، بلغ الأمر بابن سينا أن يتصور الإنسان قادرا على أن يكون إنسانا بمجرد كونه يملك عقلا وأنه لو علق في الهواء دون أن يلامس أي شيء من عالم الحس لاستطاع أن يشعر بذاته ، وهذه الرؤية الفلسفية مجافية للمنهج الإسلامي في المعرفة وللرؤية الحديثة أيضا ، ولا بد عند انتشارها من أن تزهد الناس في الإقبال على العلم والمعرفة .

إن العقل من دون تجربة فراغ ، وهو أشبه بطا حون أدرتها دون أن تضع فيها شيئا تطحنه ، بل إن وضعه في حاله ضعف المعرفة قد يكون أسوأ ، حيث إنه يقوم آنذاك بإصدار الأحكام بناء على ما لدية الأحكام مشوهة أو خاطئة . ولو أنك

جلست في مجلس يتحدث فيه بعض العامة وأنصاف المتنورين ، وتأملت في طريقهم في تحليل الأحداث السياسية والاجتماعية لأدركت معنى ما أقوله !

إن المعلومات التي نملكها حول القضية موضع التفكير والنظر لا تشكل المادة التي سيشتغل عليها العقل فحسب ، ولكنها أيضا ترسم له الأطر التي سيعمل فيها ، كما أنها تحد موج أخيلته ، وتجعلها على صلة ما بالخبرات المتوفرة . تصور معي جماعة من الناس يناقشون قضية فقهية دون أن يكون لهم دراية بأقوال الفقهاء وأئمة المذاهب فيها ، وكل ما يستندون إلية آية أو حديث أو حكمة أو استحسان عقلي ... لا ريب أنهم سيخبطون خبط عشواء وسيقعون في أخطاء مذهلة !

ومن وجه آخر فإننا حين نجعل العقل ينخرط في كثير من النقاشات والمداولات مع قليل من المعرفة والخبرة ، فإننا نعرضه لخطورة القيام بإنتاج أفكار لها نوع من التمحيص والاختبار ، فالعقل لا يتمتع بأي حصانه ضد الأفكار المقبولة شكليا والزائفة والفارغة موضوعيا ، بل إنه قد يسمم نفسه من خلال الأفكار الخاطئة التي ينتجها ، فالفكرة التي نبتكرها هي عمل العقل ، لكنها على المدى الطويل يصبح لها نوع من المساهمة في إعادة تشكليه على مقتضى مضمونها .

وكثيرا ما يظن بعض الناس أنه طليق في استخدام عقله ، وأنه ليس هناك أي حدود تحول دون ذلك ، مع إدراك العقل مسور بالمدركات التي يلامسها عن طريق الحواس ؛ ولذا فإن الأعمى لا يستطيع التفكير في الأشياء التي يدركها البصير عن طريق البصر ، كما لا يستطيع الأصم التفكير في الأشياء التي يدركها سليم السمع عن طريق الأذن وهكذا ... وإذا كان عمل العقل فيما أدركه عن طريق الرؤية – مثلا – قد لا يوفر لنا تحليلات يقينية ، فما بالك في منتجات العقل من خلال عمله في أمور تقديرية تجريدية ؟ إنها لا شك ستكون أقرب إلى التخمين أكثر من أي شيء آخر .

هذا كله يرشدنا إلى أ العقل مهما ملك من الإمكانات الفائقة سيظل يشعر بأن جودة متوقفة على كثافة المعارف والمقولات التي سيشغل عليها ، وما يبديه عن براعة مدين للمعارف التي في حوزته . إن حاجتنا إلى المزيد من المعرفة لن تتوقف في يوم من الأيام عند حد من الحدود ، ومهما تعمق الواحد منا في مسألة من المسائل فإنه سيجد نفسه في النهاية عاجزا عن الإجابة عن بعض الأسئلة المتعلقة بها ، مما يدعونا إلى أن نجعل من طلب العلم والبحث والتنقيب عن الحقائق والمفاهيم شغلنا الشاغل ؛ وحين تخلص النية فإن الثواب على ذلك عظيم وجزيل .

موضوعية ونسبية

كلما تقدم العلم وتراكمت الخبرة ازددنا بصيرة بطرق عمل عقولنا ، كما ازددنا معرفة بإمكاننا في إدراك الأشياء . وهذا في حد ذاته مكسب كبير ، حيث إنه يوفر علينا الكثير من الجهود والأوقات التي نهدرها في مناظرات ومناقشات

واستكشافات عميقة ، إذ نطلب من عقولنا الأحكام القطعية والمحددة في أمور تأبى طبيعتها ذلك .
ما زال معظم الناس يعتقدون أن العقل يتعامل مع الأمور الأخلاقية والمعيارية والمعنوية كما يتعامل مع الأمور المحسوسة ذات الحجم والمساحة واللون ، ولذا فإنهم يتعجبون من الخلاف الذي يقع بين أبناء الدين الواحد والجماعة الواحدة في أمور تبدو شبه بدهية في نظرهم ، ولذا فإنهم يكثرون مع العتب واللوم ، ويسيئون الظن بالمختلفين ، ويتهمونهم بأشنع التهم !.
الحديث عن الموضوعية المطلقة والموضوعية النسبية متشعب جدا ، لكن لعلي أسوق بعض الملاحظات التي تساعدنا على تكوين انطباعات كافية عن القضية ، وذلك عبر المفردات الآتية :

1 - تتعامل عقولنا مع الأمور المحسوسة على نحو شبه مباشر ، وحين تحتاج إلى وسائط وأدوات ، فإن تلك الوسائط والأدوات غالبا ما تكون أيضا محسوسة ، فنحن حتى نعرف حجم غرفة مالا نجد أية مشكلة في ذلك ، ويكفي أن يكون لدينا شيء لقياس الأطوال (متر) – مثلا – حتى نقف على ذلك بدقه عالية . والآن يستخدم المهندسون في صناعة الأشياء متناهية الصغر أدوات قياس ، هي من الضآلة إلى درجة أنه يصعب التعبير عنها بشيء من المقاييس المشهورة .

أما الأمور المعنوية مثل الفرح والحزن والعلم والجهل ، والكرم والبخل ، والشجاعة والجبن ، والاعتدال والغلو ، والإفراط والتفريط .... فإن عقولنا لا تستطيع التعامل مع هذه المعاني على نحو مباشر ، ولا استخدام أدوات محسوسة في كشف كنهها ، حيث ليس لدى الإنسان أي آلة أو مقياس أو ميزان يساعدنا في معرفة ما بلغة فلان من العلم أو الشجاعة أو حسن التدبير ... ومعظم إطلاقات الناس في هذا إطلاقات الناس إطلاقات تفتقر إلى الدقة و التحديد ، فهم حين يقولون : فلان عالم لا يملكون أي محك حاسم للتحقق من صواب ذلك .
نخلص من هذا أنه ليس أمام العقل عند التعامل مع الأمور المعنوية سوى الاستعانة بوسائط معنوية كالمفاهيم والمصطلحات والتعريفات والأعراف والمقارنات ،فنحن حتى نعرف أن فلانا شجاع – مثلا – في حاجة أولا إلى بلورة مفهوم الشجاعة وتعريفها ، ثم نبحث في مدى تجلي ذلك المفهوم في سلوكه أثناء منازلة الأعداء .

2 - كل التصورات والمناقشات والأحكام والتعريفات المتعلقة بأي مسألة من المسائل النفسية والفكرية والأخلاقية والاجتماعية ، ترتكز على مفهومنا للشيء الذي نعمل العقل فيه . وعلى مقدار صلابة ذلك المفهوم ووضوحه ودقته تكون صلابة الأرضية الفكرية والثقافية التي نجري عليها مداولتنا وأحكامنا ؛ والعكس صحيح . ومن المؤسف أن المفاهيم والتعريفات التي نتعامل بواسطتها مع الأمور غير المحسوسة تتسم دائما بالهشاشة والنسبية والانتقاء والغموض . وهذا يعني أن النواة التي يعتمد عليها العقل في إدراكه لما نحن بصدده نواة غير جديرة بالوثوق المطلق .

إذا تساءلنا عن سبب هذه الهشاشة في المفاهيم ، فإننا سنجد أن الوصول إلى جواب حاسم ليس متيسرا ، لكن يمكن أن نجتهد ، فنقول : إن سبب عدم دقة مفاهيمنا يعود إلى أن القضايا التي نريد تعريفها هي نفسها ذات طبيعة هلامية ، ومائعة يصعب الإمساك بها وصبها في قوالب لغوية من أجل تشكيلها ، وربما عاد هذا إلى أن القضايا الفكرية والاجتماعية تتمتع بأوساط متدرجة ، مما يجعل بدايتها ونهايتها غامضة وغير محددة ، فأنت إذا كنت لا تعرف الوضعية الوسطى في الخزن أو البطولة أو العداوة ، فإنك لا تستطيع أن تعرف حالة الشدة القصوى في هذه الأمور ، كما إنك لا تعرف بدايتها وحالات الضعف مهمة من أجل إيجاد درجة من العزل بين المفاهيم المتضادة ، فنحن – مثلا – في حاجة إلى أن نعرف إلى أي حد يكون السلوك المندفع وغير المكترث مظهرا من مظاهر الشجاعة ، حيث يصح تسمية صاحبه شجاعا ، ويكون بذلك موضع تقدير وثناء ، وبالتالي ما جاوز ذلك خارجا عن حدود الشجاعة ومنصفا مع أعمال الطيش والمجازفة والتهور، كما أننا أيضا في حاجة إلى أن نعرف معالم السلوك الذي يشكل الحد الأدنى لخلق (الشجاعة) حيث ينظر إلى ما قل عنه على أنه نوع من الخور والجبن ، فالفضيلة – كما قالوا هي دائما وسط بين رذيلتين .
وإذا تأملنا في حياتنا اليومية وجدنا أننا طالما اختلفنا في تصنيف بعض أشكال الإقدام والجرأة : هل هي مظهر من مظاهر الشجاعة أو هي مظهر من مظاهر السفه والتهور ؟ وطالما رأينا المزاح وقد جر العداوات بسبب أن أحد المتداعبين قد تكلم بما عده الطرف الآخر نوعا من العدوان والأذى ، وليس لونا من المزاح . مما يدل على أن مفهوم الشجاعة ومفهوم المزاح ملفوفان بالإبهام والغموض ، ومن الصعب جدا التخلص من ذلك .

3 - نحن بحكم تركيبنا العقلي نفر من التعامل مع المسائل المجردة ، ومنها المفاهيم والمصطلحات والتعريفات ، ونفضل دائما التعامل مع الأشياء المحسوسة ؛ ولذا فإننا حين نسمع من يصف فلانا من الناس بأنه قوي جدا ، نحاول فهم قوته عن طريق تجسيدات القوة في سلوك الأقوياء من خلال صرعهم للآخرين ، أو حملهم لأشياء لا يستطيع غيرهم حملها ، أو من خلال قدرتهم على التحمل الشديد ... تصور معي أن ثلاثة من الناس سمعوا جملة " فلان قوي جدا " كيف يتفاعلون مع هذه الجملة ، وما نوعية المفهوم الذي يستقر في ذهن كل واحد منهم عن قوة ذلك الشخص ؟

في تصوري أن كل واحد منهم سيفهم من الجملة المذكورة درجة من القوة تتناسب مع ما رآه من صورة القوة ، وعلى سبيل المثال فإن الذي رأى أو عرف أن بطل العالم يحمل مئتي رطل ، فإنه سوف يفهم من تلك العبارة أن أقصى ما يمكن أن يحمله فلان قد يتجاوز مئتي رطل . والذي يعرف من خلال خبرته في قريته أن أقوى رجل في القرية لا يستطيع حمل أكثر من مئه رطل ، فسوف يفهم من العبارة أن فلانا قد لا يستطيع حمل أكثر من مئه رطل أو مئه وعشرين رطلا . وكلنا يعرف كيف كان ينظر إلى كل من يحمل الشهادة الثانوية قبل أربعين سنه على أنه مثقف

ومتعلم من الوزن الثقيل . على حين أننا الآن قد نقول : إن فلانا يحمل أعلى الشهادات ، لكن من الصعب وصفه بأنه مثقف .
وهكذا ، فن عقولنا حين تحاول إدراك الحقائق لا تدركها على أنها حقائق مطلقة ومعزولة ومجردة ، وإنما تدركها بالقياس إلى ما هو مخزون في خبرتنا من الصور والتجسيدات المشابهة ، بمعنى إنها تدرك القضايا المجردة على أنها نسبية . قريب من هذا معمول به في نظام الامتحانات في بعض الجامعات ، حيث لا تصحح أوراق الطلاب من مئه _ كما هو مألوف_ ولكن بالنظر إلى أعلى درجة نالها الأول بين الطلاب ، فإذا كانت مثلا ثمانين فإن أوراق باقي الطلاب تصحح من ثمانين وليس من مئة ، أي إن من يأخذ (75) يكون كمكن أخذ (93) . هذا كله يعني أن الحقيقة تتبدى لكل واحد منا من أفق الخبرة المختزنة لدية.

4 - تتحكم في موقف الواحد منا من المفاهيم والموضوعات والقضايا التي يقوم بمعالجتها أمور ثقافية عديدة ، منها عقائده ومبادئه الكبرى وخلفيته الثقافية العامة ، وما يملك من معلومات ومعارف ذات علاقة بالقضية موضع المعالجة ، بمعنى أن عقائدنا أشبه ما تكون بنظارة ملونه حين نضعها على أعيننا ، فإن كل الأشياء تتلون في نظرنا بلونها ، فالمسلم الملتزم – مثلا – يمتنع من شرب الخمر قليله وكثيرة انطلاقا من اعتقاده بحرمته ، ولا يهتم كثيرا ببحث مسائل أضرار الخمر ومنافعها ، أما غير المسلم فإن مسألة الحلال والحرام لا تشكل لديه قضية تستحق النظر ، ولا جدوى من إيرادها في أي نقاش معه ، لكن مسألة مضار الخمر تلفت انتباهه وتستحق لديه الاهتمام ، ويمكن على أساسها محاورته والتواصل معه . وقل مثل هذا في أمور كثيرة لا تكاد تحصى ، و لك أن تقارن بين نظرة المسلم إلى البقرة وبين نظرة الهندوسي وبين نظرة المسلم إلى الطلاق وبين نظرة النصراني ....

حين يتوفر اعتقاد راسخ في أي شيء فإن الدماغ يولد من الحجج والبراهين والأدبيات والرموز ما يجعل ذلك الاعتقاد يبدو منطقيا مقبولا ، وحين يدخل الناس في نقاش حول أمر من الأمور فإنهم آنذاك يبرهنون على رؤى مختلفة ، وتبدو الحقيقة الواحدة وكأنها حقائق متعددة بسبب اختلاف زوايا الرؤية ، وبسبب اختلاف المناهج والأساليب والخلفيات التي استخدمت في الوصول إلى تلك الرؤية ، وهذا من جملة النقص المستولي على سائر البشر .

5 – يترتب على المفاهيم والرؤى التي سقناها آنفا أن نتعامل مع مسألة (الموضوعية) وفق الأسس التالية :

1 – الاعتراف بأن الموضوعية المطلقة – والتي تعني تساوي علاقة القضية موضع الإدراك بجميع المشاهدين لها والباحثين فيها على اختلاف مواقعهم والخلفيات التي ينطلقون منها – عسيرة جدا أو غير ممكنه نظرا للاعتبارات التي ذكرناها .

2- مجاهده النفس للتحرر من ضغوطات الهوى والمصالح الخاصة والصمود في وجه المغريات قياما لله – تعالى – بالقسط وخدمة للحقيقة ووضعا للأمور في نصابها الصحيح ؛ وقد

قال الله جلا وعلا : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ)
وقال : **(يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله)**
ومع كل المقاومة والمجاهدة يجب أن نظل حذرين ومتوجسين خيفة من أن نتخذ موقفا نفسيا معينا يلقي على أعيننا غشاوة تمنعنا من رؤية الأمور على ما هي عليه .

3 - عدم الجزم بصواب ما نذهب إلية وعدم الجزم بخطأ ما يذهب إليه غيرنا ما لم تتوفر في المسألة من نصوص قطعية الثبوت قطعية الدلالة ، وهذا يؤدي إلى أن نترك هامشا للخطأ في تعاملنا مع الأشياء ، كما يؤدي إلى نوع من التسامح والمرونة تجاه من يخالفنا في كثير مما نرى .
4 - الاعتقاد بأن الأمور المعنوية كثيرا ما تتبدى لنا وقد تلبست بلبوسات مختلفة ، مما يعني أن رؤيتنا لها ستكون متفاوتة ، وحين نأتي للتعبير عن تلك الرؤية ، فإن اللغة التي سنستخدمها لا تتسم بالطواعية والمرونة والدقة والشفافية التي يتطلبها التنوع في الإدراك ، وذلك بسبب قصور اللغة في مسايرة التعقيد الموجود في القضايا المعنوية ، وبسبب عدم سيطرتنا عليها على النحو المطلوب . وهذا يعني أن نتهم تعبيراتنا بعدم الوفاء بمتطلبات الفهم لدى الآخر ، وأن نحاول باستمرار البحث عن التعبير الذي يحكي على أفضل وجه الحقيقة التي نتحدث عنها .
5 - استخدام التعبيرات التي تنسجم مع هشاشة موقفنا الإدراكي ، فنبتعد عن الجزم فيما لا يحتمل الجزم ، ونستخدم التدرج اللفظي في تقريراتنا ومقارباتنا ، فنقول : نشك ونظن ويغلب على الظن ، ولا ندري على وجه التحديد ؛ كما نقول : ضعيف جدا وضعيف وقوي وقوي جدا ومتوسط القوة ..

إن رؤيتنا للأشياء من هذه الآفاق الرحبة تولد فرصا جديدة للاجتهاد والحوار والاتفاق والاختلاف ، كما تجسر العلاقة بين الخصوم بما تشيعه من احتمالية الخطأ ونسبية الصواب . وأمة الإسلام في أمس الحاجة اليوم إلى مثل هذا حتى توسع الأرضية التي تمكن تياراتها المختلفة من فتح حقول – ولو ضيقة – للتعاون والعمل المشترك .

التفكير بطرق مختلفة

امتن الله – جل وعلا – على بني الإنسان بمبادئ فطرية موحده تعمل عليها عقولهم ، لكن رفد تلك المبادئ بأشكال متنوعة من الخبرة والثقافة والمعرفة والاطلاع... أدى إلى تكون معالجات عقولنا للقضايا المختلفة متفاوتة إلى حد بعيد . وهذا التفاوت أحد أهم ما يميز الإنسان عن الحيوان ، حيث إننا من خلال التنوع نبتعد عن قهر الغزيرة التي توجه الحيوان ، والتي تجذب دائما نحو التوحد والتماثل . وبما أننا نواجه ظروفا ومشكلات مختلفة ، وبما أننا نملك إمكانات

متفاوتة ، فلا بد إذن من الصيرورة إلى حلول وتوجهات مختلفة إن عقولنا – إلى جانب هذا وذاك – تكره التشتت الشديد ، وتميل إلى أن تعمل ضمن إطارات ومعطيات محددة . وهذا الميل هو الذي البشرية إلى أن تقسم المعرفة – والتي هي كل متكامل – إلى علوم ، وتقسيم العلم الواحد إلى عدد من الفروع والتخصصات . وهنا يكمن معقد الابتلاء في هذا الشأن حيث تتطلب الوضعية الصحيحة في التفكير والإبداع أن تعمل عقولنا على أساس أصول ومعلومات وخبرات معترف بها ومنظمة ، في الوقت الذي عليها أن تتحامى الإصابة بالتصلب والجمود والحرفية نتيجة كسلها ، أو سوء تعاملها مع ما ذكرناه من ثوابت ومحصلات معرفية . وتدل الخبرة التاريخية على أن الذين ينجحون في هذا الابتلاء قليلون ، حيث إن كثيرا من الناس يميلون إلى التفكير الطليق بعيدا عن محددات الخبرة والمعطيات ، فيقعون في الأوهام ، ويبتعدون عن المنطق والمعقول والواقع ؛ كما أن كثيرا من الناس يقعون أسرى لطريقة واحدة في التفكير ، أو يخضعون لانطباعات ومشاعر خاصة ، وبعيدة عما يفرضه المنهج العلمي الرصين . إن (الوحي) الذي يشكل محور الرؤية الإسلامية للحياة والأحياء ، أمن لنا الإطارات والمعطيات الثابتة والمبادئ والأصول الكبرى ، وترك لعقولنا مجالات واسعة تمارس فيها عملها إبداعا وتفريعا وتجديدا ونقدا وترجيحا . وهذا يجعل حركة المفكر المسلم منضبطة ومؤصلة ، كما يجعلها تتمتع بالطلاقة والحرية إلى أمداء فسيحة .

إنه ليس هناك ضرر في أن نفكر ثم يكون ما ننتهي إلية في بعض الأحيان موحدا ، ولكن الإشكال يتجلى في حالتين :

الأولى : أن نفكر بطريقة واحدة ، مما يعني أننا حرمنا التنوع الفكري المتاح لنا .

الثانية : أن ننهي دائما إلى نتائج موحدة ، وهذا يدل على أحد الأمرين :

الأول : أننا نمارس التفكير بطريقة مشوهة جدا !

الثاني : أننا لم نمارس التفكير ، وإنما ندعي ذلك ادعاءا ، وهما أمران أحلاهما مر !

وهذه بعض الإضاءات حول أهمية التفكير بطرق مختلفة ،

وحول أضرار توحيد أسلوب التفكير لدينا :

1 - علينا أن نقول في البداية : إن الناس يميلون بحكم مقتضيات الحياة الاجتماعية إلى أن يفكروا بطريقة واحدة ، وأن يحاولوا رؤية الأشياء من منظور واحد . وهم يندفعون إلى ذلك بطريقة لا شعورية ، ويعدون التماثل في ذلك جزءا من التضامن الأهلي والتلاحم الوجداني ، والذي يحتاجون إلية أشد الاحتياج في أيام المحن وغياب النظام .

وبعض الناس يميل إلى التفكير التماثلي خوفا من الغلط ، أو النقد أو خوفا من خسارة بعض الأتباع والمعجبين ، ويعبرون عن هذا المعنى بالمثل الشعبي السائر : " الموت مع الناس رحمة " . وأحيانا يكون تحامي التفكير بطرق مختلفة نابعا من الجهل بطرق التفكير المغايرة لما هو سائد ... هذه الأسباب والعلل تجعلنا

نقول : إننا إذا تركنا أنفسنا على سجيتها فإننا لن نحصل إلا على التماثل في طرق التفكير ، وإن التنوع المطلوب يحتاج إلى وعي وجهد ومجاهدة ومتابعة .

2 - كثيرا ما تتكون طرق التفكير لدى شخص أو جماعة أو شعب نتيجة هيمنة بعض الأفكار أو الرؤى على نحو طاغ على مصادر التثقيف لدية ، مما يؤدي إلى أن يقوم العقل بتوليد المزيد من الأفكار والاتجاهات والرموز التي تخدم الأفكار المحورية ، وتدلل عليها وترسخها . وقل مثل ذلك عن الخطاب الذي يتشكل لدى متثقف كرس حياته للدوران في فلك شخص والعمل على شرح مقولاته وتسويغ تصرفاته ؛ فإن طرق التفكير لديه تشكل على نحو يجعلها منسجمة مع المضامين والطروحات التي تنسجم مع الأفكار والأوضاع المحورية لدى الشخص .

وهكذا فحين يسيطر على شخص شعور بالتفوق الكبير على أقرانه ومنافسيه فإن تعامله معهم يخضع لمقتضيات عقدة الأخ الأكبر ، حيث يتضايق حينئذ من النقد ، ويرى أن على الآخرين أن ينسقوا معه وأن يستشيروه وأن يستفيدوا منه ، وحين يلتقي بهم فإن مخاطبته تتسم بالفوقية والنرجسية ، وتمتلكه الجرأة ليلقي بالكلام على عواهنه ، وليميل إلى الجزم والقطعية في أمور كثيرة هي موضع جدل . وقل مثل هذا في الدول والأحزاب والجماعات والشركات 000

3 - تقوم المشاعر الفوارة والانطباعات القوية في أحيان كثيرة بعين الدور الذي تقوم به الأفكار والأوضاع ، فحين تسيطر على الإنسان مشاعر التفاؤل أو التشاؤم أو الغربة أو الاضطهاد والظلم ، فإن تلك المشاعر تجعل العقل يتجه نحو حسم الأمور الظنية وتفسير كل الظواهر المحتملة ، وتشكيل كل الرؤى المستقبلية في ضوء المشاعر والانطباعات المسيطرة . وإني أعرف شخصيا العديد من الأشخاص الذين يشعرون بالظلم الفادح ، وبعدم نيل حقوقهم أو عدم نيل ما يظنون أنه حق لهم ، أو بعدم الحصول على ما كانوا يستحقونه من دعم ومسانده ، وحين أستمع إلى أحاديثهم وتحليلاتهم وتوقعاتهم المستقبلية أجد أنها مصهورة في بوتقة واحدة ، ومصبوبة في قالب تفكيري واحد ، وتحتكم إلى محكمات متجانسة ؛ إنه يغلب عليهم ما يمكن أن نسميه ب(التفكير الأسود) حيث انسداد الآفاق وسوء الظن بالناس واليأس من المستقبل ، والشعور بالخذلان والتفسير المتشائم للأحداث وتحميل الأخطاء أكثر بكثير مما تحتمل والتشنيع على المخالفين 000 إن مشاعر الظلم والاضطهاد المسيطرة عليهم استطاعت إيجاد بيئة كاملة من الاتجاهات والتفسيرات والرؤى المشتركة . ولذا فإنهم فعلا حين يفكرون في أمر ما ينتهون إلى نتائج موحدة أو متشابهة . ولكل واحد منا أن يستقرى أحوال الناس ليلمس هذا على نحو واضح .

4 - في المجتمعات التي يسودها الجهل بأحكام الشرع ، وتعاني من ويلات التخلف الحضاري تنتشر الأدبيات والمفاهيم والمعايير التي تدفع العقل في اتجاه ممارسة العمل على النحو الذي يؤمن نوعا من الغطاء الفكري لأوضاعهم التي يعيشون فيها ، حيث تنتشر المقولات النافذة والجازمة التي

لا تحتمل لديهم سوى وجه واحد من التفسير . كما ينتشر التفكير الخرافي الذي يركز على إبراز الحوادث على نحو معزول عن أسبابها ، وحين يحاول تحديد الأسباب فإنه يأتي بأسباب غير علمية وغير مؤثرة .
في أحوال التخلف ينتشر التفكير الخرافي حيث يفسر النجاح بحسن الحظ والصدفة ، ويفسر الإخفاق بتآمر الآخرين وسوء الحظ ، أفكار الناس في حالة التخلف وتصوراتهم عن الماضي مشرقة وزاهية ، فقد كان مجموعة من الانتصارات والفتوحات والأحداث السارة ، وكان الناس فيه مغمورين بالسعادة والسرور ، مع أن أي قراءة – ولو نصف جيدة -للتاريخ وترشدهم إلى أن الأمر لم يكن كما يظنون .
أما المستقبل فلا ينظرون إليه علي أنه شئ يمكن أن يتشكل كثير منه من خلال تحسين العمل في الحاضر ، وإنما ينظرون إليه من أفق العجز والاستسلام والجبرية وأخبار الملاحم والفتن ،إنهم يؤثرون أن يروا آفاق المستقبل بناء علي حكايات وروايات شائعة ولا يهمهم في شئ التأكد من صحتها ، عوضاًً عن رؤيته من أفق سنن الله –تعالي-في الخلق ، وما يلوح من منطق الأشياء وتطورها!
الخلاصة: أن أوضاع التخلف تدفع الناس إلي تماثل فكري عجيب لكنه سيئ جداً ، علي حين أن أحوال النهوض تحفز العقول علي التنوع في الطرح، و التعددية في الرؤية والاختلاف في التحليل ، وهذا هو شأن العقل البشري حين يمارس الاجتهاد.
5- كثيراً ما ينتج استخدام طريقة واحدة في التفكير عن نفوذ الأسلوب المدرسي في حياة جامعة أو حزب أو فئة ، حيث يشعر الذين يتولون التثقيف والتعليم في تلك الجماعة. . . أن أمانة حمل الرسالة تملي عليهم أن يوصلوا ما تعلموه ، وما كلفوا بتعليمه بأعلى درجة ممكنة من الدقة ، ويجدون أن أفضل طريق إلي ذلك هو أن هو يمارسوا عين الطرق التي تعلموا بها . وهذا كثيراً ما يستلزم منهم عدم التوسع في التثقيف من أجل ضمان وحدة الأفكار لدي أتباعهم . وأذكر أنني التقيت باثنين من مثقفي إحدى الجماعات ، ومع أنهم يعيشان في منطقتين مختلفتين ، إلا أني دهشت حين وجدت إن كل واحد منهما يكمل لصاحبه بعض العبارات والجمل التي بدأ بها . ويصل الأمر في بعض الأحيان إلي اختصار قضايا فكرية ذات ذيول وتفرعات إلي عدد من الشعارات والمقولات المصوغة بإحكام ، ويكلف المتلقون بحفظها عن ظهر قلب ، وترديدها بمناسبة وغير مناسبة ! ويكمل ذلك بمنع الأتباع من الاطلاع علي ما كتبه أشخاص حياديون أو ينتمون إلي مجموعات أخرى، وذلك حرصاً علي نقاء فكرهم!
وقد دلتنا التجربة التاريخية علي أن الأفكار والمفاهيم والمبادئ حين تبنى وتتحول إلى مناهج ؛ تدرس بطريقة مدرسية تلقينية ، فإنها تنتهك ، وتتعرض للتخشب ثم الذبول ، وتحرم من الرفرفة والنقد ، وبالتالي من النمو والتطور ، ومحصلة كل ذلك كثيرا ما تتشخص في الحرمان من التفكير بطرق متنوعة ، حيث يتم تشكيل تفكير الجماعة والحزب أو الفئة وفق محاور محددة ، وتلك المحاور تقولب
العقل وتجعله يعمل بتأثير منها بطرق موحدة أو متشابهه ، وكلنا يذكر كيف سرت في الناس مقولة " الأمة بخير والضعف في القيادة " سريان النار في الهشيم ، وكيف أصبحت هذه المقولة تولد حقلا واسعا من المفاهيم والرموز والإشارات ، التي تبرئ

العامة من لمسؤولية عما حصل للأمة ، لأن الأمة بخير ويحملون الحكام المسؤولية كاملة عما يحدث ، لأن العيب فيهم ! ونتج عن ذلك انتظار البطل العظيم الذي يحمل درة عمر وسيف صلاح الدين ليعيد الأمور إلى نصابها .
حين يعتقد شعب أن مشكلاته كامنة في ساسه بلادة فإنه سيعلق كل وازنة وآماله ومستقبله على تحسن أولئك الساسة ؛ لكن حين يعتقد شعب أن جوانب الحياة يغذي بعضها بعضا بالإيجابيات والسلبيات ، وأن كل تقدم أو تأخر في جانب ما ينعكس على بقية الجوانب ، فإن ذلك سوف يحرض الجميع على القيام بواجبهم ويؤدوا الدور المنوط بهم . وكما قال أحد الحكماء : حين يرتفع منسوب الماء في البحر فإن كل السفن الطافية عليه ترتفع ، وحديث : " كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته " معروف ومشهور .
وإليك مثالا آخر على تأثير التثقيف على التفكير بطريقة واحدة ، وهو أنك تجد السواد الأعظم من المسلمين يعتقدون أن استعمار الغرب لنا ونهبه لخيرات بلادنا وهيمنته علينا .... تشكل الأسباب الجوهرية لضعفنا وتمزقنا وتخلفنا العلمي والصناعي ؛ مع أن الحقيقة أن تسلط الغرب علينا..... هو نتيجة طبيعية لضعفنا وانحراف كثير من المسلمين عن المنهج الرباني الأقوم فقد دخلنا في نفق الضعف والتشتت قبل أن نتعرف على الغرب . وقول الله – جلا وعلا : (قل هو من عند أنفسكم) دليل واضح على أن مشكلاتنا الداخلية الكبرى هي التي أضعفت موقفنا تجاه الخارج . وسبب هذا اللون من التفكير الذي اخترق كل المستوى الشعبي من الأمة تقريبا ، يعود إلى أن أسلافنا خلال محاربتهم الاستعمار ومحاولاتهم إخراجه من البلاد المسلمة بثوا في الناس معاني الاعتزاز بالذات والأنساب والتاريخ والأمجاد ، في الوقت الذي ألصقوا فيه بالاستعمار كل النقائص والجرائم. وهكذا فكثير من الناس ينتهون من وراء التفكير إلى نتائج موحدة لأنهم يفكرون بطريقة واحدة ، وهم يفكرون بطريقة واحدة لأنهم ثقفوا بطريقة واحدة ، ولقنوا مبادئ ومفاهيم موحدة !
إن التعليم عن طريق المناهج والمدارس شيء لا بديل عنه في الحقيقة ، ولكنه يحتاج إلى الإثراء بالبحوث والتحليلات والمقارنات ووجهات النظر المختلفة ، حتى ينكسر شيء من حدة حرفتيه وقولبته ، وحتى يساعد المتعلمين على اكتشاف الخيارات والبدائل ، وعلى تلمس التنوع بدل إفقار الحياة من خلال توحد موهوم وهش وشكلي ، وسيظل من المطلوب في كل الأحوال أن نسعى إلى تنوع في التفكير لا يصل إلى حد الفوضى والتشتت والتسيب ، وإلى نوع من التوحد لا يصل إلى الانغلاق والجمود والتطابق التام .

العقلية التجريبية

يصرف الكثير الكثير من جهود بني البشر في مكافحة العماء ، وفي معرفة الكون وطبائع الأشياء والعلاقات التي تربط بينها ، وبعد أن اكتسب الإنسان من معرفة الواقع وطبائع الأشياء ... ما يضمن له الحد الأدنى من الأمن واستمرار الحياة شرع يفكر في تكوين صور وانطباعات ، وامتلاك قوانين ومفاهيم عامة عن جميع ما حوله

بغية المزيد من السيطرة والاستفادة . وقد استخدم الناس في ذلك عقولهم وحواسهم ، واستفادوا من تجارب من سبقهم من بيني جنسهم .
وعلى مر التاريخ كان الناس يجدون ما يجذبهم نحو فهم الواقع من خلال الصور الذهنية المجردة ، وحل المشكلات التي تواجههم من أفق خبراتهم المخزونة ، وما يسعفهم به الخيال . وقد كان ذلك في حقيقة الأمر قليل الجدوى ، فالقوانين التي تحكم الحياة المادية لا تكشف إلا من خلال التجربة والملامسة للواقع عن طريق الحواس .

وقد وجه القران الكريم الناس إلى أن يتأملوا في خلق السماوات والأرض ، وأن يقرؤا التاريخ من خلال رؤية آثار السابقين والنهايات التي صاروا إليها ، لأن في ذلك نوعا من إخراج الناس من فلك جاذبية : (التأمل الذاتي)
:وزجهم في حوار مباشر مع الطبيعة ؛ يقول الله جلا وعلا :(إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب).وقال_سبحانه_(قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) .وقال (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة إن الله لطيف خبير) .إن القرآن الكريم أراد أن يكون السند الجديد لمعارف البشر مستنبطا مما يرونه ويسمعونه ويلمسونه من سنن الله ـ تعالى ـ في الخلق ، ومن بديع صنعه في الأشياء المادية التي تكشف عنها المعايشة الحقيقية .وبذلك يتخلصون من اسر النظم العرفية المملوءة بالأوهام والخيالات والتي ورثوها عمن قبلهم . وقد آتت توجيهات القرآن الكريم أكلها في هذا الشأن ، حيث استطاع المسلمون ـ علي الرغم من تشبعهم بعلوم اليونان التي تهتم بالتجريد علي مقدار مجافاتها للتجربة ـ أن يضيفوا إلي مفهوم العلم معنى جديداً ، هو استخدام العلم من أجل اكتشاف أسرار العالم الطبيعي ، وتمكين الإنسان بالتالي من السيطرة علية .
وعلي سبيل المثال : فقد عرف اليونان الرياضيات ، وتفوقوا فيها ، ولكنهم لم يعرفوا كيف يستخدمونها لحل المشكلات الواقعية التي تواجه الإنسان ، أما المسلمون فقد برعوا في استخدام الأرقام ، ووضع أسس علم الحساب الذي يمكن تطبيقه في حياة الناس اليومية ، وكان اختراعهم للجبر وتفوقهم في الهندسة التحليلية وابتكارهم لحساب المثلثات إذاناً بابتداء عصر جديد ، تستخدم فيه الرياضيات للتعبير عن قوانين العالم الطبيعي ،من اجل حل مشكلات المساحة الأرضية وحساب المواقيت وصناعة الآلات .
وقل مثل هذا في العلوم الطبية والصيدلانية ، حيث كانت ذات دلالة تطبيقية لا تخطئها العين ،لكن العالم الإسلامي فقد العقلية التجريبية ، لأن العقول لو تركت وشأنها فإنها تنجذب نحو المعالجات التي يمكن أن تقوم بها دون استشارة الواقع ،لأن البحث التأملي سريع النتائج ، قليل التكلفة .
أضف إلي هذا ما أصاب المسلمين من الانحلال الداخلي علي صعيد السياسة الاجتماع ، إلي جانب الاضطرابات والفتن التي عصفت به ، إلي جانب الغزو الخارجي الذي ابتلي به العالم الإسلامي في فترات عديدة من تاريخه ، حيث إن

البحث التجريبي يحتاج إلي الاستقرار ، كما أنه يحتاج إلي المال والدم والتشجيع من قبل الدولة والمجتمع ، ونحن إلي هذه اللحظة لم نستعد حب التجريب الذي فقدناه ، ولا العقلية التي تتخذ من التجربة محكاً للحكم علي صلاحية الأفكار والرؤى والتحليلات!.

وهذه بعض الملاحظات في هذا الشأن:

1_يحاول العقل تكوين صور عن الوقائع والقضايا وسك المفاهيم واكتشاف العلاقات ... من خلال إمكاناته الذاتية ، ومن خلال ما لديه من زاد معرفي حول ما يحاول القبض عليه. ويندفع العقل بطريقة لاشعورية إلي أن يتخذ من المعلومات والمعايير السابقة ركائز ومرشدات في أعماله الخاصة . ونحن إذ نقوم بذلك لا ننتبه إلي أنه ليس لدينا أي ضمانة لصحة تصوراتنا وأحكامنا

المتعلقة بالواقع مهما امتلكنا من المعلومات ، وامتلكنا من نفاذ البصيرة ، وذلك لأن عمليات التفكير بالواقع كثيراً ما تستند إلي مفاهيم وتعريفات غامضة ، كما تستند إلي تصورات جزئية أو خاطئة ، وإلي تحليلات كثيراً ما تغفل بعض المعطيات المهمة . ومن غير الممكن أن ننتهي إلي أي فكرة أو مقولة تتسم بالصلابة والدقة مادمنا قد ولدناها من مقدمات ظنية أو هشة . ولذا فالتجربة ، والتجربة مجدها هي التي ستكشف عن مدي صحة أفكارنا.

هب أننا فكرنا في أن نطلب من أحد الموسرين منحة دراسية لأحد الطلاب الفقراء ، وجاء من يقول : لا تطلبوا من فلان ، فإنه لن يعطيكم ، لأننا طلبنا منه تبرعا لبناء مسجد ، فأبى ، ولأنه يقتر على أولاده في مصروفاتهم الشخصية ، ولأن عليه ديونا لبعض الناس لا يقوم بقضائها ... إن كل ما يقال على هذه الوتيرة يحفزنا على ألا نطلب منه ؛ لأن من يفعل ما ذكرنا لا يتكفل عادة بمنحة دراسية لطالب غريب عنه ؛ لكن هذه المؤشرات لو بلغت مئة ، فإن دلالتها على الموقف الذي سيتخذه ذلك الموسر من طلبنا ستظل ظنية ، وسيظل هناك احتمال ما لأن يلبي طلبنا. وعند النظر في أحوال بعض الأثرياء نجده فعلا يقتر على نفسه وأولاده ، ويبذل بسخاء بالغ في أعمال الخير ، كما نجد من يضن على مشروع خيري بماله ويجود على مشروع آخر ، ولن يتوفر لدينا أي دليل على امتناع الرجل عن تلبية طلبنا ، يكافىء كلمة (لا) . إن الواقع لا يكشف لنا عن هويته وأبعاده من خلال تفكيرنا التأملي ولا من خلال القوانين والمفاهيم العقلية التي نستخدمها في محاولة اجتراحه والاستحواذ علية ، وإنما من خلال استقصاء منهجي ، نستخدم فيه حواسنا وكل الأجهزة التي يمكن أن تساعدها ، من أجل تسجيل المشاهدات وإجراء المقارنات بينها ، ثم تقنين كل ذلك وصيغته في تعبيرات تتوخى أكبر قدر ممكن من الدقة .

وتعد العلوم الجامدة كالرياضيات والكيمياء والفيزياء والفلك أسعد العلوم قاطبة بالاستفادة من المنهج التجريبي ، والنتائج التي يمكن أن نتوصل إليها من وراء استخدام هذا المنهج فيها هي أصلب النتائج وأكثرها دقة . أما علوم الإنسان والعلوم الاجتماعية كافة فإن ملاءمة المنهج التجريبي لها ، محدودة بسبب كثرة العناصر المؤثرة في وقائعها وغموض تلك العناصر وتأبيها على التشكيل

والتحديد ؛ مما يجعل إخضاعها للتجريب أمرا في غاية الصعوبة . الوقائع التاريخية – مثلا – تتأبى على التجريب لأنه لا يمكن استعادة الظروف التي أحاطت بأي واقعة تاريخية ، ولذا فإننا لا نستطيع اختبار معطياتها واحتمالاتها ؛ ولذا فإن فهمنا للتاريخ وتفسيرنا لحوادثه وحديثنا عن أسباب وقوعها وعن الروابط بينها تظل أمورا ظنية محتملة .
من المؤسف أن يحرم البحث العلمي لدينا من التجريب بسبب بعض القيود (البيروقراطية) ، أو بسبب عدم توفر الأموال اللازمة مما جعلنا أمة غنية جدا بالأفكار والمفاهيم والمقولات التي لا يمكن القطع بشأنها ولا بناء خطط عملية عليها ، وجعلنا كذلك أهل جدل لفظي من الطراز الأول ! ومن المؤسف مرة أخرى أن ظاهرة كثرة الجدل دون الوصول إلى أي نتيجة كثيرا ما تتضخم في عصور التدهور الحضاري ، حيث يبلغ الاضطراب والاختلاط الفكري أقصى مداه .

2 - لا ينبغي أن يظن أن مجرد امتلاكنا للرغبة في إجراء تجربة يعد كافيا للحصول على خيرات المنهج التجريبي ، إذ لا بد من امتلاك شيء من الأحكام المسبقة أولا ، وتلك الأحكام هي التي تفتح وعينا على ما نرغب في رؤيته والكشف عنه ، كما أنها توفر إطارا علميا يحد من جموح الخيال ؛ ذلك أن العقل كلما ارتفعت درجة الجهالة لدية ، وقل حظه من الثقافة المتخصصة ، كانت قدرته أكبر على طرح الفرضيات وتخيل الأسباب ، ولكن 99 / % من تلك الفرضيات تكون منافية للواقع ، وهي تظلل الباحث وتبعده عن الحقيقة عوضا عن أن تقربه منها . وعلى العكس من ذلك فإن خبره الباحث تساعده على استبعاد الكثير الكثير من الفرضيات ، واعتماد عدد قليل منها لتشكل نقطة ارتكاز وانطلاق نحو إدراك حقائق الأمور ، واستقصائها بمنهجية صحيحة وموثوقة .

وعلى سبيل المثال : فإننا حين نتحدث عم أسباب خسارة شركة من الشركات نقوم بطرح عدد من الفرضيات والاحتمالات التي تبدو منطقيا مقبولة ومعقولة ، ولكن الخبراء الإداريين والاقتصاديين وحدهم هم القادرون على غربلة تلك الفرضيات واعتماد عدد قليل منها لمتابعة البحث المتعمق . إن كل العقول قادرة على بناء الفرضيات وتقديم الأسباب ، لكن الخبرة الجيدة وحدها هي التي تفرق بين فرضيات العالم وفرضيات الجاهل .

3 - من المهم أن نقول : إن على المرء – حتى يحافظ على زخم ثقته بالمنهج التجريبي – أن يملك القدرة على الشك في الموروثات العلمية السابقة ؛ إذ لن يكون هناك أي تطلع لإعادة البحث وفقا للمنهج التجريبي أو غيره ، إذا كلنا نعتقد أن السابقين قد وصلوا إلى الحقيقة الكاملة والصافية ، ولا يكون علينا آنذاك إلا التسليم لهم والبناء على النتائج التي توصلوا إليها . وإذا فعلنا ذلك فإننا سنكون جاهلين ببعض أساسيات البحث العلمي ومتجاهلين لما أتاحه لنا التراكم العلمي وتنظيم المعرفة من إمكانات جديدة وما فتحاه من آفاق رحبه ممتدة .

هناك بالإضافة إلى ما ذكر حالة مهمة تصرف الناس عن الاستفادة المستمرة من المنهج التجريبي ؛ إذ من الملاحظ أننا حين نشعر أن التجارب التي قمنا بها لم توصلنا إلى ما كنا نحلم من فهم الواقع ، لا نعمد إلى إجراء تجارب جديدة بناء على فرضيات جديدة ، وإنما نستدبر المنهج التجريبي كله ، ونصير إلى المعالجة الذهنية المجردة . والحقيقة أن هذا شيء شائع جدا ، فكم شاهدنا من لا يسلم بنتائج تجربة دعوية أو اجتماعية ليس بناء على ما أسلمته إلية تجاربه الخاصة ، ولكن بناء على ما ملكه عن طريق الأحلام والأخيلة والعمليات العقلية المعزولة عن أي مقاربة للواقع .
لابد أن يتم تزويد المدارس والجامعات بالمزيد من المعامل والمختبرات ، والمزيد من المشرفين العلميين عليها إذا ما أردنا تكوين العقلية التجريبية لدى المسلم المعاصر ، وتخليصه من عادات التفكير السيئة التي ورثناها من عصور الانحطاط.

العقلانية

هذا المصطلح من المصطلحات الكثيرة الغموض والالتباس بسبب كثرة الاجتهادات القديمة والحديثة التي تداولاته، وما سنقوله هنا في شأنه لا يعدو هو الآخر أن يكون أيضاً اجتهادا. ويبدو أنهم أرادوا ابتداء من سك هذا المصطلح علي هذا النحو من المخالفة لقاعدة النسبة في العربية(والتي تقتضي أن يقال عقلي)أن يفرقوا بين ما يدرك عن طريق العقل ، وما يقال طبيعة العقل مثل العواطف والغرائز والمشاعر ، وبين وضعية معينة تشكل طريقة الإنسان في النظر إلى الأشياء ، فنحن نقول : فلان عقلاني ، أي يتعامل مع الأشياء والمواقف والأحداث من خلال المحاكمة العقلية ، بعيدا عن التأثر بالعواطف والأمور العارضة ؛ فكأن العقلاني رجل يتصرف على هدي العقل . والعرب تقول : عقل فلان : أدرك الأشياء على حقيقتها .
يكتسب مصطلح (العقلانية) في بعض البيئات سمعة حسنة ؛ لأنها تعني التنور ورقي المفاهيم والتجرد من المؤثرات غير الموضوعية أثناء إصدار الأحكام ، كما تعني البعد عن الخرافة والخضوع للشائعات والأقوال غير الممحصة ؛ لكن لا نعدم أن نرى كلمة (عقلاني) وهي تطلق على أشخاص أخذوا يستخدمون عقولهم بعيدا عن هدي الوحي ومحكمات النصوص ، وكأنهم لا ينتمون إلى هذه الأمة ، ولا يعيرون لمرجعيتها الثقافية أي اهتمام .
والحقيقة أننا نشهد في الأمة تيارين متضادين :
تيارا يهمل أبناؤه استخدام عقولهم في فهم الحياة ورسم أطر الحركة في أوضاع وظروف ملغمة بالأزمات والمشكلات ، ظنا منهم أن الحلول التي أبدعها السابقون لمشكلات زمانهم صالحة لحل مشكلات زماننا .
وتيارا يستخدم أتباعه عقولهم على نحو جيد ، لكن من غير الاهتداء بالثوابت ، فتأتي حلولهم وطروحاتهم مجافية لحس جماهير الأمة ، مما يجعلهم غير قادرين

على التأثير فيهم وحملهم على التغير والتطوير ، إنهم خسروا الاهتداء بالثوابت كما حرم الناس من الاستفادة من بعض ما لديهم .

وإليك الآن بعض المقاربات التي تكشف عن بعض التباسات هذه القضية :

1 - في تصوري أن من الأنسب أن ننظر إلى العقلانية على أنها ممارسة منهجية راشدة ومؤصلة ، عوض أن ننظر إليها على أنها صفة ملازمة لشخص أو تيار أو جماعة ، فقد رأينا في الحياة العملية أشخاصا كثيرين ، نعرف عنهم الاتزان العقلي والقدرة على الرؤية الموضوعية الجيدة ، لكن في مواقف معينة يتصرفون كما يتصرف الأشخاص أهل الأهواء والمخرفون وأسرى العواطف والغرائز . وهذا يدعونا إلى القول : إن على كل من يظن أنه يتمتع بالعقلانية أن يكون على حذر حتى لا يجد نفسه وقد أصبح في صفوف أولئك الذين أخذ على عاتقهم التشنيع عليهم ووصمهم بالحاجة إلى العقلانية .

2 - نفترض في الرجل العقلاني أنه يملك درجة جيدة من الوعي بطبيعة طروحاته ومقولاته ، وبالمسارات والمسارب العامة التي تسلكها تلك المقولات ، كما أننا نفترض أنه واع بطبيعة المنطلقات والمستندات التي تشكل البنية العميقة لتلك المقولات والطروحات . ومع أن الوعي بهذه وتلك لا يكون كاملا أبدا ، إلا أننا نستطيع القول : إن الرجل يستطيع استخدام ما يملك من وعي بما سبق ذكره في إيجاد نوع من التساوق بين معتقداته والأدلة المتوفرة لدية ؛ إذ إن من الملاحظ أن معظم الناس لا يدركون ما هم فيه خلل في هذا الشأن ، حيث نجد الكثير من المعتقدات والكثير من المطلقات والتقعيدات التي لا تستند إلى براهين وأدلة كافية ومناسبة ، وكم رأينا ممن يولد نتائج قطعية من مقدمات ظنية أو غير مسلمة من المخالفين .

وكم رأينا ممن يأتي بنص محتمل لعدد من التفسيرات ، فيعتمد واحدا منها ، ويجهر به على أنه التفسير الوحيد . وكم رأينا ممن يأتي إلى حادثة تاريخية يها عدد من الروايات فيختار واحدة منها ، ويهمل الباقي من غير أساس مقبول لذلك الاختيار عند أهل العلم . وكثيرا ما تجد من يطوع الأشياء لهواه ، فإذا كان معجبا بشخص ما أو تاريخ دولة أو جماعة ما ، فإنه يقبل كل الروايات والأخبار التي تمجد ما هو معجب به ، ويشكك في كل الأخبار التي تحط من قدره . ولا يكاد يخلو مجلس يستعرض فيه التاريخ من موقف من مثل هذه المواقف .

ولعلنا صرنا نلاحظ أن كثيرا من الناس بات يستخدم لفظ (أعتقد) في الدلالة على ما هو مظنون لدية ، كما يستخدم لفظ (أظن) فيما هو موضع شك ؛ وذلك استجابة لروح (التعالم) وادعاء المعرفة التي سرت في الأمة ، إن الله – جلا وعلا نبهنا إلى هذا النوع من الخروج على العقلانية في مواضع عديدة من كتابه ، منها قوله :" **إن بعض الظن أثم**" وقوله " **وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ** " ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

لا بد لمواجهة هذه الحالة من أ، نسعى إلى نشر المفاهيم المتعقلة بالدقة والأمانة والاستخدام اللغوي الجيد ، وإلا فإن هذه الوضعية ستظل مرشحة إلى مزيد من التفاقم .

3 - تعني العقلانية في الرؤية الإسلامية المزيد من القدرة على التحرر من وطأة الغرائز والشهوات والمصالح الخاصة ، وما ذلك إلا لأن البنية العقلية والنقدية لدى الإنسان تظل تنطوي على نوع من الهشاشة والقابلية للانحراف عن التفكير القويم . المرء حين يغرق في متطلبات الجسد ، ويمضي معها أشواطا بعيدة تختلط لديه الأهواء والميول النفسية بأحكام العقل ، ويفقد القدرة على التمييز ، على حد قول الشاعر :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة
كما أن عين السخط تبدي المساويا

وتثبت وقائع لا تحصى أن العقل يملك إمكانيات هائلة لإنتاج الأردية الفكرية التي تغطي على الشهوات النفسية ، وتضفي عليها بالتالي المعقولية والمشروعية . ولطالما وقفنا عاجزين عن وضع النقاط على الحروف من أجل لا فريق بنن الاجتهادات والأهواء .

هذا كله يعني أن وقفة صدق مع الله – تعالى – هي وحدها التي تحرض المسلم على التوقي من أن يلبس الأمور ويدلس على نفسه وعلى المسلمين الحقائق والأحكام والمواقف .

كلما ترسخت المفاهيم والسمات والعادات العلانية لدى شخص من الأشخاص وجد نفسه أمام خيارات أكثر. نعم قد لا تكون كل الخيارات جيدة أو مريحة أو ملائمة، ولكنه من خلال القدرة علي الموازنة يشعر بالتحرير من النمطية، وحالات القهر والضرورة التي توجه الحيوان ، وتسيطر علي الإنسان الجاهل ، وذلك للرؤية والإرادة الصلبة . بذلك الشعور بالتحرير تتفتح الإمكانات العقلية، وتتحسن آليات الفعل والممارسة.

إننا لو تركنا أنفسنا وعقولنا دون مراقبة جيدة ، فإننا سنجد أنها منجذبة نحو التفكير في الأمور السهلة وإدراك القضايا السطحية . وبالعقلانية نتجاوز القشور إلى اللباب ، وننفذ نحو الأعماق لنرى دقائق صنع اللطيف الخبير في تركيبة الوجود ذات الروعة والإتقان والتعقيد الشديد .

4 - كثيرا ما تتجلى العقلانية في امتلاك الشخص قدرا جيدا من المعرفة والوعي بحدود إمكاناته الذهنية ، كما أنه يبدي قدرا من التفهم لما يعجز عنه إدراكه من القضايا والمسائل الملتوية والمحتجبة ، فيقف فيها موقف الباحث المتعلم .وهو في الوقت نفسه يعترف أيضا بأن لما يعرفه حدودا فيأخذ أثناء إصدار الأحكام ما يجهله بعين الاعتبار، يبتعد فيه عن القطعية والجزم . هذه الوضعية تحول بين الإنسان العقلاني وبين أن يصاب بالغرور والادعاء لما لا يحسنه ، كما أنها تشكل حافزا له كي يحسن من مستواه الذهني والمعرفي .

والحقيقة أن هذه من الوي مفقودة لدى كثير من الخاصة فضلا عن العامة ، إذ إن من النادر أن تجد من يقول : إن بنيانه الفكري غير مكتمل ، ومن يعترف بأنه محدود الخيال أو ضعيف أن الذاكرة ، كما أن من النادر أن تجد من يذكر بأنه لا يملك القول الفصل في القضية الفلانية ؛ لأنه يعتقد أنه يفتقر إلى بعض المعلومات المهمة التي من غيرها لا يكون هناك أي ضمان لصحة استنتاجاته

ومن وجه آخر فإن الشخص العقلاني كما يعترف بخطورة ما لا يعرف ، وما لا يدرك وبضرورة أخذه بعين الاعتبار ، فإنه يحاول ألا يقع في تقليد الآخرين دون معرفة الدليل ، ودون التثبت من صحة أو رجحان ما يقلدهم فيه ، فكم من نظرية ومن فكرة ومقولة حكم الناس عليها بالخطأ والبطلان والخروج عن إطار المعقول والمقبول ، ثم جاء أشخاص أفذاذ ذوو عقول متوهجة ، فأعادوا إليها الاعتبار ، واكتشفوا ما فيها من صواب ، لأنهم نظروا إلى أحكام السابقين على أنها اجتهادات تحتمل الخطأ ، كما تحتمل الصواب ،والواقع أن كثيرا من تقدم البشرية مدين لهذا الصنف من الباحثين الذين يتمتعون بالحيوية الذهنية والروحية لسلوك الطرق المهجورة ومعالجة المسائل التي نفض غيرهم أيديهم منها . وبهذا وذاك تصبح العقلانية مظهرا من مظاهر الاتزان العقلي والمعرفي .

من المهم أخيرا أن ندرك أن العقلانية صفة يمكن الحصول عليها من وراء القراءة والبحث والتأمل والنقد والحوار ومجاهدة الأهواء وصلابة الإرادة ... وإن كل واحد منا قادر على أن ينال منها حظا وافيا لو طرق أبوابها ، وسلك الطرق الموصلة إليها . والمسلم المعاصر في أمس الحاجة إلى ذلك .

القدرة على التمييز بين الأشياء

جاءت الشريعة الغراء لتحقيق خير الخيرين ودفع شر الشرين . واكتشاف ذلك موكول من الأمور إلى المجتهدين وأولي البصيرة والخبرة الذين عليهم أن يعملوا عقولهم – في إطار الأصول والثوابت والتوجيهات الشرعية العامة – في تقييم الأوضاع والأحوال السائدة ليصيروا إلى الرؤى والاجتهادات التي تحقق أفضل وضعية ممكنة تساعد المسلمين على العيش وفق مبادئهم ، كما تساعدهم من الوصول إلى مصالحهم . وبما أن الذين سيستفيدون من اجتهادات أهل الاجتهاد ورأي أهل الرأي هم المسلمون كافة ، فإن من المنطقي آنذاك أن يحاول كل مسم امتلاك شيء من الخبرة والبصيرة التي تمكنه من تمييز الأصلح والأحسن له في أمور دينه ودنياه وقفات قليلة مع هذه القضية :

1 - تبدي عقولنا عجزا ظاهرا عن الإحاطة بالحقائق والحدود القصوى التي يمكن أن تنتهي إليها الأشياء . وأفضل ما يمكن أن تقوم به هو الاكتشاف المتدرج ، كما هو الشأن في كل الأعمال التطويرية ، وهذا يعني أن علينا أن ننظر إلى كل ما هو ناجز من خير أو شر على أنه عبارة عن وضعية غير نهائية ، وأن هناك احتمالا دائما وقويا ، لأن يكون هناك وضعية كامنة

ومنتظرة هي خير من الوضعية الناجزة . كما أن علينا أن ندرك في المقابل أنه مهما ساءت الأحوال فإننا لم نبلغ القاع ، وأن هناك دائما ما هو أسوأ إذا أسأنا التصرف في الإمكانات التي بين أيدينا . وعند التأمل في أوضاعنا نجد أن فينا الكثيرين ممن يعتقدون أنهم في وضعية لا يمكن الحصول على أفضل منها ، كأنهم تشربوا قول القائل : " ليس في الإمكان أبدع مما كان " ! كما أننا نجد من يجاهر بالقول : إننا بلغنا حالة من التدهور لم تبلغها الأمة في يوم من الأيام ، كما أنه لا يتصور أن نصير إلى ما هو أسوأ منها . ومن العجيب أن بعض من يقول هذا القول يتكلم في مناسبة مختلفة عن الصحوة التي نعيشها ، وعن المبشرات بمستقبل إسلامي مشرق !!.

هؤلاء وأولئك لم ينتبهوا إلى أن عقولنا حين تدرك الخير والشر والصلاح والفساد لا تدركها على أنها أمور مطلقة متحيزة ومعزولة ، وإنما تدركها على أنها أمور نسبية مائعة ، وبما أننا لم نبصر أفضل صورة للخير وأسوأ صورة للشر ، بل قد نكون عاجزين عن تصورهما ، فإننا لا نستطيع إلا أن نقول : إن ما نحن فيه لا يعدو إلا أن يكون شيئا قابلا للتحول والتغير نحو الأحسن ونحو الأسوأ .

ونظرا لرسوخ هذين الاعتقادين لدى كثير من الناس ، فقد أضحى من مشكلاتنا المهمة فقد الحماسة للتغيير ، والركون للأحوال الحاضرة على ما فيها من سوء وصعوبات !

2 - نحن في تفكيرنا نخضع لنظام إما هذا وإما ذاك ، وهو النظام الذي يستولي علينا إذا تركنا عقولنا تعمل دون أن يقوم وعينا بالرقابة عليها . وتجليات هذا النظام في حياتنا اليومية أكثر من أن تحصى ، فنحن على سبيل المثال حين نرفض فكرة أو مقولة أو نظاما أو وسيلة ، فإننا نرفضها بشكل دائم ، وحين نقبل شيئا من ذلك ، فإننا نجد صعوبة بالغة في التخلي عنه ، وربما احتاج الأمر أحيانا إلى عشرات السنين ، بل إلى قرون عدة .

إن الفكرة المرفوضة تعامل كما يعامل المجرم ، إنه يصبح مجرما – في القوانين الحديثة حيث لا يُعترف بالتوبة – من أول جريمة ويرتكبها ، مع أن نصف نجاعة الوسائل والنظم والأفكار مستمد من تكوينها الذاتي، والنصف الأخير مستمد من البيئة والظروف التي سوف تعمل أو تستخدم فيها . ومع أن معطيات البيئة متغيرة باستمرار ، فمن المفترض أن يتغير موقفنا من بعض ما كنا رفضناه في يوم من الأيام ، لكن ذلك لا يحدث إلا في مرات قليلة ، وليس من النادر أن يكون الشيء الذي صرنا إلية أكثر من الشيء الذي رفضناه وتخلصنا منه في يوم من الأيام ، فنحن مجتهدون في ذلك ، قد نصيب ، وقد نخطئ .

وأذكر في هذا السياق أن هناك العديد من الجامعات العربية كانت تدرس طلابها كتب جامعية معتمدة ، ثم رأت أن الوضع الأمثل ألا يكون بين يدي الطلاب أي كتاب ، وإنما ينبغي عليهم أن يعودوا إلى المصادر والمراجع الأساسية للاطلاع على الموضوعات والمسائل المقررة ، وقد كانت تلك فكرة صحيحة ، لكن الذي حدث بعد ذلك أن الطلاب لم يعودوا إلى المراجع والمصادر ، وإنما صاروا يكتبون ما يقوله الأساتذة ثم يمتحنون به ، وقد شكل هذا نوعا من الانتكاسه حيث

إن محتوى المادة الواحدة صار في بعض الأحيان لا يزيد عن خمسين صفحة ! وهكذا فقد خسرت تلك الجامعات الكتاب الجامعي ، ولم تربح ما تصبو إلية من ربط الطلاب بأمهات الكتب ، والتي تشكل المصادر الأساسية للمعلومات . ولم يستطع إلا القليل من تلك الجامعات العودة إلى الكتاب الجامعي من جديد !
إن أئمتنا وضعوا قاعدة فقهية قديمة ، تقول : " لا ينكر تغير الأحكام بتغير الأزمان " . وهي إحدى القواعد الذهبية التي تنم عن فهم عميق لروح التشريع وطبيعة الحياة ؛ لكن إذا عدنا إلى التطبيقات العملية لتلك القاعدة وجدنا أنها محدودة جدا ، وذلك بسبب ارتباك وعينا تجاه الأمور الطارئة ، وبسبب ارتباكه حيال التعامل مع مقاصد الشريعة ، وحيال نقاط المفاصلة بين النصوص ومقاصد التشريع .
وكان المأمول أن يكون لدينا صياغة فقهية أكثر شمولا لمستجدات العصر ، وأكثر تجاوبا مع الأحوال الصعبة التي يعيش فيها كثير من المسلمين ، فالعقل المسلم مطالب بأن يرسم الكثير من العزائم ، ويرتقون فيها إلى آفاق المثالية ، كما أن علية أن يضع النقاط على الحروف في الكثير من المسائل التي يهبط فيها السلوك الإسلامي إلى مستوى الرخصة ومستوى الضرورة حيث تصبح المناداة بالاستجابة لما يفرضه الواقع أمرا شائعا ومقبولا .
يا ترى ما الخلاصة التي يمكن أن نخرج بها من وراء كل هذه الإلماحات والتقريرات ؟
في تصوري أن من المهم جدا أن نحاول إشاعة ثقافة التمييز بين ما في الخير والشر ، والصواب والخطأ والتقدم والتخلف .... من درجات متفاوتة ، فهناك الصواب المطلق والصواب الغالب الذي يحظى بنسبة كبيرة من مطابقة الحقيقة . وهناك الصواب المظنون والمشكوك فيه ؛ كما أن هناك الخطأ البدهي الذي تجاوز مرحلة الخلاف والنزاع ، وهناك خطأ الراجح والخطأ المتنازع فيه والخطأ المزعوم والملتبس ... ويمكن أن نقول مثل هذا في كل الأمور المتقابلة التي أشرنا إليها . وهذا حين يتحقق ، فإنه يساعدنا على أن نطلب الأرقى والأحسن باستمرار ، ونتلمس آفاقه ، كما يجعلنا نحذر من الانحدار نحو الأمور الأشد سوءا وضلالة .

التوازن بين العقل والعاطفة

يشكل العقل والنفس ، أو العقل والعواطف والانفعالات أهم جانبين في حياتنا المعنوية .وبين هذين الجانبين تحالفات وتعارضات ونقاط التقاء ومفاصلات . والسعي إلي إيجاد نوع من التوازن بينهما ، فلا يطغى أحدهما على الآخر ، مطلب شرعي وإنساني وحياتي ، وهو شكل من أشكال الابتلاء الكثيرة التي علينا أن ننجح فيها في هذه الحياة .

التوازن بين العقل والعاطفة هو أساس توازن الشخصية ، ولا يمكن مع وجود خلل فيه لدى شخص أن يوصف بالنضج والاعتدال . في مرحلة الطفولة يكون التحكم الأكبر في شخصية الإنسان للعواطف والغرائز والانفعالات ، ولذا فإن الطفل يكون سريع الغضب سريع الرضا سريع البكاء ؛ إنه فاقد للتوازن بسبب عدم نمو ملكاته العقلية إلى حد يمكنه من إيقاف الانفعالات عند حد معقول . في مرحلة المراهقة تنمو الأفكار والمفاهيم والقدرات العقلية كافة لدى المراهق على نحو نحو سريع ، ولكن ليس إلى الحد الكافي والمطلوب . وكلما تقدم الإنسان في السن ازداد نضجا ، ومع المزيد من النضج يتحقق له المزيد من الاتزان والاعتدال في المزاج والسلوك ،حتى إذا دخل في مرحلة الشيخوخة المتأخرة تسلل السأم إلى الروح وأخذت العواطف بالتراجع نتيجة تراجع الحيوية والاهتمام والاتصال بالمحيط . إنه موت الرغبات الذي يؤرخ لبداية الانسحاب من الحياة بالكلية.

وهذه بعض الإضاءات لهذة القضية المهمة :

1-ما دام كل من العقل والعاطفة يشكلان شيئين متقابلين في الذات الإنسانية ، فإن لنا أن نتصور وقوع نوع من الشد والجذب بينهما ونوع من التأثير والتأثر . وهذا هو واقع الحال .

عواطفنا تنقسم إلى قسمين : عواطف إيجابية مثل عاطفة الحب والرحمة والشفقة والسرور وتعشق الفضائل ... وعواطف سلبية مثل الحقد والغضب والكراهية والخوف والحزن والأنانية والجشع والكبر ... وهذه وتلك تتأثر تأثرا بالغا بالأفكار وبأحكام العقل عامة .

كثير من العواطف ينشأ وينمو نتيجة احتكاك العقل بالواقع ، أي نتيجة الخبرات التي تتحصل لدى الشخص ، فحبي لفلان غالبا ما يكون نتيجة اكتشافي لبعض السمات الخيرة والنبيلة التي يتمتع بها . وقد يكون نتيجة موقف جيد معي . فإذا سمعت عنه المزيد من ثناء الناس عليه ، فإن عاطفة الحب لدي تزداد قوة . وإذا حدث أن أشفقت على شخص لأنك سمعت أنه مظلوم ، ثم تبين لك الأمر ليس كذلك ، وأنه يظهر المسكنة مع أنه ظالم فإن عاطفة الشفقة والرحمة تأخذ مباشرة بالانطفاء ، وربما حل محلها البغض والنفور .

وقد ورد في حديث ابن عباس : " أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمة " . فتذكر المسلم يفيضه الله – تعالى – عليه من النعماء يشعل عاطفة الحب لدية ، ويجعله يلج بالشكر والثناء على المنعم العظيم .

في المقابل فإن العواطف النشطة تشوش على العقل عمله ، وتصبح أحكامه بعيدة عن الموضوعية والإنصاف ، وقد حذرنا الله – تعالى – من الوقوع في ذلك ، حيث قال – سبحانه : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ "

بل إن العواطف المشبوبة قد تسخر العقل لخدمتها ، وتجعله يعمل على توفير غطاء منطقي لها .

ويذكرون في هذا الصدد نبأ ذلك الشاعر الذي مدح ، فبالغ في المديح ، وبعد مدة هجا من مدحه ، فأقذع في هجائه . فلما كلم في ذلك التناقض الصارخ قال : رضيت فقلت أحسن ما أعلم . وغضبت فقلت أسوأ ما أعلم ، أي إن الشاعر اعتمد في حالتي المديح والهجاء بعض أحكام العقل ! والحقيقة أن تاريخ العالم وواقعه مملوء بالنماذج والحوادث التي تثبت هشاشة العقل وتداعي تماسكه في وقت ثورة العواطف ، صحيح أن صحوة ما تعقب ذلك ، لكن بعد أن يقع المكروه!

3 - إننا ما دمنا أحياء فسنظل نكتسب خبرات جديدة ، وتنزاح من أمام أبصارنا بعض الأغشية التي تمنعنا من الرؤية الصحيحة . ومن الواضح أن العقل البشري لا يكتشف الحقائق دفعة واحدة ، وإنما على سبيل التدرج . وهذا يعني أن مما يساعدنا على التوازن بين العقل والعاطفة أن نحاول الاحتفاظ بنهايات مفتوحة في رؤيتنا للأشياء ؛ مما ينعكس بالتالي على عواطفنا تجاهها . وقد وجهنا إلى هذا نبيا محمد صلى اله علية وسلم _ حين قال : " أحبب حبيبك هونا ما عسى أن يكون بغيضك يوما ما ، وأبغض بغيضك هونا ما عسى أن يكون حبيبك يوما ما " .إنه لا يريدنا أن نقع في حمأة الحسرة والملامة حين تتغير أحكام العقل تجاه أولئك الذين أغرقنا في حبهم أو بغضهم . وكم رأينا في واقع الحياة تمن ينقلب من النقيض إلى نقيضه نتيجة الانجراف مع العاطفة أو مسايرة رؤى واستبصارات ناقصة ومحدودة !

ولا يقتصر الأمر على العواطف الشخصية ، وإنما يتعداها إلى عواطف الآخرين . في قوله – عليه الصلاة والسلام : لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه " وقوله: " لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إلية من والده وولده والناس أجمعين " دليل واضح على أن المرء يستطيع أن ينمي عاطفة الحب لديه إلى درجة أن يحب للمسلمين من الخير والنجاح ما يحبه لنفسه ، كما أنه يستطيع أن ينمي عاطفة الحب نحو النبي صلى الله عليه وسلم _ إلى درجة أن يصبح آثر لديه من نفسه ومن الناس أجمعين . ولولا أن ذلك ممكن ومستطاع لما كان لحث عليه معنى .

وفي فوله : **"ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم"**

بيان واضح بأن الذين صبروا يستطيعون من خلال الصبر أن يدفعوا بالتي هي أحسن ، مما يؤدي إلى تغير عواطف الآخرين نحوهم من مشاعر وعواطف معادية إلى عواطف أخوة وصداقة .

المسلم بعد هذا وذاك مطالب بأن يوزع عواطفه على هدي الشريعة الغراء ما دامت حياته كلها لله تعالى – وفي هذا يقول سبحانه – عن أهل الصلاح من هذه الأمة ": أذلة على المؤمنين، أعزة على الكافرين "

إن المشاعر التي يحملها المسلم نحو أخية المسلم هي مشاعر التذلل والتواضع والألفة ... على حين أنه تجاه الكافرين يحمل مشاعر والعزة والأنفة والقوة . هذا ما يفعله الإيمان . وعلى المسلم الذي يفقد هذه المشاع أن يراجع إيمانه ، وأن يحاول اكتساب تلك المشاعر من جديد .

4 – المعركة الحقيقة التي على المسلم أن يخوضها هي المعركة بين العقل وبين العواطف والانفعالات السلبية التي تعد بمثابة أمراض نفسية أو أعراض وذيول لها ، وذلك مثل الحقد والحسد والغضب والكبر والجشع والشح والأنانية وما شاكلها مما يخل بتوازن الشخصية ويناقض أحكام العقل ، ويؤجج الصراعات والانقسامات بين المسلمين . والتخلص من هذه الأمراض يحتاج إلى مجاهدة قوية وإلى تعليق القلب بالله – تعالى – والدار الآخرة ومحاولة التحلي بأضدادها ، فيكون ذلك بمثابة اكتساب طباع وعادات جديدة . هذا يعني أن نقاوم الغضب بكظم الغيظ ، والكبر بالتواضع ، والجشع بالقناعة ، والشح بالكرم ، واليأس بالأمل والاستبشار .... ونحن إذ نحاول ذلك نرجو النجاة من الآثام التي تترتب على هذه الأمراض ، والفوز بالأجر والثواب الذي رتبه الله تعالى – على الفضائل النفسية والخلقية وتجسيداتها من الاستقامة السلوكية .

وانظر معي إلى عاطفة (الحقد) والآثار السيئة التي تترتب على حمل الإنسان لها . الحقد على شخص يتكون نتيجة الغضب منه على نحو متكرر والعجز عن الانتقام والتشفي منه ، حيث يحدث لدى الشخص نوع من الاحتقان لمشاعر الكراهية والبغض . وهو يدفع إلى سلسلة من العواطف والأعمال التي لا يخلو كثير منها من مؤاخذات شرعية مثل الشماتة بالمحقود عليه ، إن أصابه بلاء ، ومثل احتقاره وازدرائه وحسده والاستهزاء به وغيبته وإفشاء سره وهجره ...ومن أجل التخلص من هذا المرض العضال وجهتنا الشريعة الغراء إلى التحلي بالعفو والإحسان والصفح والرفق والتسامح ؛ يقول الله تعالى": **خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ"**

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً. وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله"

وقال "يا عائشة عليك بالرفق فإنه لم يكن في شيء إلا زانه ولا انتزع من شيء إلا شانه".وكان صلى الله عليه وسلم – يعطي من نفسه القدوة والنموذج في مواجهة الأخطاء ومقابلتها بالحلم والعفو ؛ وفي هذا تقول عائشة – رضي الله عنها : **" ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم منتصرا من مظلمة ظلمها قط ما لم ينتهك من محارم الله شيء فإذا انتهك من محارم الله تعالى "**

حين يتغلب المسلم على العواطف والانفعالات السلبية ، فإن نوعا جديدا من التوازن يبدأ في شخصيته إنه توازن بين العقل والعواطف الإيجابية ، وآنذاك ترتقي شخصية الإنسان بالابتعاد عن الرذائل الخلقية والنفسية . وتختلف نوعية الأخطاء السلوكية التي يمكن أن يقع فيها لاختلاف مجال التوازن .

وعلى سبيل المثال : فإن الواحد منا حين يقوم بتربية أبنائه يجد نوعا من الصراع بين حكم العقل وبين نزوع العاطفة ؛ فكم العقل يوجهة في بعض الأحيان إلى القسوة على ولده من خلال الضرب أو الحرمان من بعض الأشياء .... ونزوع العاطفة يوجهه إلى الشفقة والتجاوز وغض الطرف . وفي هذه الحالة فإن الخضوع لأحكام العقل ، أو لأيحاءات العاطفة ، يظل في مضمار الاجتهاد السائغ . وحين تصبح أخطاء المرء

اجتهادية ، فهذا من أعظم البراهين والدلائل على سموه وارتقائه واتتزانه ؛ وهذا ما يريده منا الشارع الحكيم .

4 ـ مما يساعد على إقامة التوازن بين العقل والعاطفة أن نعرف ونستخدم كلا منهما في مجالة الصحيح . العقل هو الدليل الذي يكتشف الواقع ويقيم الحدث ، ويحدد بالتالي رد الفعل المناسب . والعقل هو الذي يرسم الخطط ويضع البرامج ، ويصوغ المنهج النقدي . ومن المهم حين يقوم بكل ذلك أن نبعد عنه – قدر الإمكان – العواطف والميول الشخصية والأهواء والرغبات بإيحاءاتها وإشاراتها المختلفة .

5 ـ والحقيقة أن الإنسان يواجه مشكلة عويصة في هذا الشأن ، حيث إن رغبتنا في أمر تساعد العقل على استخراج محاسنه وميزاته وخصائصة ، ويحدث العكس حين نبغض أمرا من الأمور ، حيث تقوم عواطفنا السلبية نحوه بتحريض العقل على استخراج معائبه ونقائصه .ويتبدى لنا الأمر في الحالتين كما لو أن الحكم الذي نصدره حكم عقلي نقي وخالص ، والحقيقة أنه ليس كذلك ، ولكن علينا أن نجتهد ونبذل الوسع .

العواطف والانفعالات ذات حيوية كبيرة في حياتنا ، فهي لها أشبه بالحبل السري بالنسبة إلى الجنين ، إنها تمنحها المعنى والرواء ، وهي في الوقت نفسه جزء مهم من توازن الشخصية وحين يصاب إنسان بجمود أو برود العواطف ، فإنه يفقد أداة مهمة من أدوا ت التواصل مع الآخرين ، ويصبح أقرب إلى الجماد !

العواطف تشكل بالنسبة لأعمالنا وإنجازاتنا التعبدية والدنيوية الوقود الروحي الذي من غيره لا نستطيع الاستمرار في أداء الأعمال الشاقة ، كما لا نستطيع الصمود في وجه الشدائد والصعاب ، كما لا نستطيع مقاومة مغريات الشهوات . ولذا فإن من الحيوي أن نروي العواطف الخيرة ، ونتعاهدها لتحافظ على نشاطها وتفاعلها ، والعمل الصالح بأوسع ما تحمله هذه الكلمة من معنى الماء الذي نسقي به عواطفنا النبيلة .

العواطف عمياء ، لا تملك أي قدرة على الاختيار أو التمييز ؛ والعقل راسم الخطط وخرائط ، لكنه لا يملك المحرك والدافع والحماسة ، فهذه أمور توفرها العواطف والانفعالات ، وهكذا يقع التكامل بينهما .

كثيرون أولئك الذين يقدمون أعمال كبيرة دون أي تخطيط جيد . وإنما بدافع قوي من ميولهم ورغباتهم ، وتكون النهاية الغرق والإخفاق الذريع ، ويظهرون في النهاية في مظهر الذي اختل توازنه ، فبدا وكأنه لا ينتفع بشيء من عقله . وهناك في المقابل أشخاص كثيرون يملكون الأفكار والرؤى والخطط الجيدة والواضحة ، ولكنهم لا يملكون الحماسة لبذل الجهد ، فيظهرون بمظهر الفيلسوف الذي ينفر من الأشياء العلمية ، لينغمس في تنظير وتحليل جميل ورائع ، لكنه بمفرده لا يصنع أي خطوة نحو الأمام .

توازن الشخصية ملمح من أجمل ملامحها ، لأنه يحمل التناسق والتكامل والاعتدال والمنطقية ، وهي أمور تزين الأشخاص وحدهم ، لكنها تزين الوجوه بأسره !

التفكير اكتشاف مستمر

من المهم لنا بني الإنسان أن نكون على وعي بأبعاد قدرتنا على الفهم والاكتشاف ، كما أن من المهم أن ندرك طبائع الأشياء التي تعمل عقولنا فيها ، ومدى طواعيتها واستجابتها لمحاولاتنا الفكرية الدائبة . ومن الملاحظ في هذا الإطار أن معظم الناس لا يجدون الرغبة الجامحة التي تجعلهم يتحملون معاناة التفكير وتشغيل الذهن ، وهذا يدفعهم إلى توليد أفكار ومفاهيم وتكوين انطباعات بعيدة كل البعد عن التحقيق العلمي ، كما أنها بعيدة عن ملامسة ما هو راق ومعقد وعميق من حقائق الوجود ؛ إنهم كمن يصطاد أو يبحث عن اللؤلؤ على الشواطئ التي يخوض ويلعب فيها الصبية الصغار !

وهناك من الناس من يعتقد ألا جدوى تذكر من وراء الاهتمام بالمسائل الفكرية ، لأنه يائس من صلاح الأحوال أو لأنه مفتون بالمنطق العملي ؛ مما يجعله ينظر إلى التفكير على أنه محض إضاعة للوقت والجهد !

وهناك من الناس من يستولي عليه شعور عميق بالفهم الجيد لكل ما يعينه ويهتم به ، فهو يعرف على وجه حسن كل ما هو في حاجة إلى معرفته ، وهناك وهناك ..... هذه النظرة السطحية وغير المسؤولة للتفكير وتشغيل الذهن نتيجة متوقعة لانتشار الجهل والأمية في بلاد المسلمين ، ونتيجة طبيعية للإعراض عن الكتاب والقراءة وكل أشكال التثقف الجيد .

وإليك بعض الأفكار والملاحظات المتعلقة بهذا الشأن :

1 - التفكير صناعة إنسانية ، ولكن مستوى الصناعات يختلف . ومن أهم ما يحرض العقل على إنتاج الأفكار وصناعة المفاهيم (الدهشة) والتي تعني نوعا من الاستغراب ، والتساؤل الحاد الذي يتولد من تفاوت لافت بين ما في خبرتنا ومألوفاتنا وبين ما نشاهد أو نسمع به من أحداث ومواقف وإنجازات .

الشعور بالدهشة يعني أن أذهاننا ما زالت تحتفظ بنوع من الحيوية وبدرجة من الاستقلال المعرفي ، إذ تأبت على الاندماج في الثقافة والخبرة السائدة . إننا نصاب بالدهشة حين نمتلك حساسية حساسية جيدة نحو الفارق بين الطبيعي وغير الطبيعي وبين الملائم وغير الملائم ، وهذه الحساسية هي وليدة تمتع الإنسان بالذهن المتوقد إلى جانب الخبرة الجيدة في بعض مجالات الحياة . ويمكن للمرء أن يدرب عقله على إنتاج الأفكار من خلال الحلول المطروحة لبعض المشكلات ومحاولة استبعاد بعضها لعدم صلاحيته ، وإبراز ميزات بعضها الآخر ، ومحاولة اقتراح حلول جديدة ...وليس المهم صحة ما نراه في كل ذلك ، وإنما المهم اكتساب خبرات إنتاج الأفكار ، فالرحلة هنا أهم من المكان الذي سنصل إلية .

كما أنه يمكن للمرء أن يدرب عقله من خلال البحث في تفسير طبيعة بعض الأوضاع والأحوال ، وتلمس أسبابها والنتائج التي يمكن أن تفضي إليها . قد نواجه بعض الصعوبات في البداية ، وقد نخرج ببعض الأفكار والتفسيرات

المضحكة ، لكن محورية هذا الأمر في ارتقاء أذهاننا ومفاهيمنا تجعلنا نتحمل ذلك ونصبر عليه .

2 - بعض الناس يمتلك قدرة ظاهرة على سبر غور الأشياء ، وتصور أطر جديدة للممارسة والحركة ، لكنه لا يملك طول النفس في بذل الجهد ، فهو غير قادر على الاستمرار في تشغيل ملكاته الذهنية ، ويظن أن التفكير المركز يعني حصر الذهن في تأمل قضية من القضايا مدة من الزمان ، ثم الانتقال إلى التفكير في غيرها ، وهكذا . وهذا مفهوم خاطىء ، فحصر الذهن الشديد في مسألة من المسائل قد يجعلنا لا نحصل على أي شيء ذي قيمة . وقد نحصل من ورائة على معطيات تبدو أنها محترقة لكنها في الحقيقة غير ناضجة . وكثيرا ما شاهدنا أشخاص ينظر إلأيهم على انهم مفكرون ومعالجو مشكلات ، ثم لا نجد لديهم إلا قوائم بحلول جاهزة وأفكار متقادمة ، ربما مر على بعضها عشرون سنه أو أكثر . ومن المؤسف أن العرب ينظر إليهم على أنهم قليلو الصبر على البحث ، وهم يبدون دائما وكأنهم في عجلة من أمرهم . وهذه النظرة وإن كانت ليست قابلة للتعميم علينا جميعا ، لكنها تشمل الأكثرية !

أما حين ننظر إلى التفكير المركز على أنه اهتمام بعيد المدى بقضية من القضايا ، فإننا سنجد أن لدينا دائما نوعا من التجديد والتحوير والتطوير والحذف والإضافة في تصوراتنا عن المسائل موضع المعالجة .

حتى لا ننزلق إلى ملاك للحلول الجاهزة ، حيث تتعطل لدينا آليات البحث عن الأفضل ، فإن علينا أن ننظر إلى المشكلات والقضايا الكبرى على أنها ظاهرات غير مكتملة تتسم بالنمو والتفاعل ، ولذا فإن الذي يناسبها آنذاك هو أن نعمد إلى معالجتها عن طريق برامج بحثية يتولى كل برنامج جانبا منها . وتكون مهمتنا ليست الفرح بالحلول التي انتهينا إليها ، وإنما تطوير تلك البرامج وتحسينها ونقدها . وإذا فعلنا ذلك فإننا سنجد أنفسنا في حالة من التألق الفكري المستمر .

وهذا ما يميز المفكرين العظام ، حيث إنهم لا ينصرفون عن معالجة أي مشكلة ، لأنهم يعتقدون أنه ستظل هناك إمكانية لمعالجتها بطريقة جديدة والنظر إليها من زوايا وعلى مستويات مختلفة . وذلك لا يعود إلى كون القضايا موضع الإدراك ليست جامدة ولا متكسلة فحسب ، وإنما يعود إلى محدودية الإدراك البشري ، إذا كل مخلوق محدود ، ولا يمكن للمحدود أن يحيط بالأشياء إحاطة غير محدودة ؛ فالمفكرون في معاناة مستمرة مع ما يفكرون فيه . والذي لا يعرف هذا المعنى يظن أنهم يكررون أنفسهم ويبدؤون من حيث انتهوا ، وليس الأمر كذلك .

3 - ليست مهمة المفكرين تصوير القضايا والمشكلات وإبداع الحلول لها فحسب ، وإنما لديهم مهام أخرى ، من أهمها القيام بصياغة تجاربهم الشخصية وتقديمها للناس كي ينتفعوا بها . والحقيقة أن هذه مهمة شاقة وخطيرة في آن واحد ؛ فنحن كثيرا ما نكون عاجزين عن رؤية العالم بأبصارنا وبصائرنا الشخصية لكوننا غير مؤهلين لذلك . أما المفكرون فإن جزءا من اكتشافاتهم يتمحور حول اكتشاف الذات ، وحين لا ننظر إلى ذات المفكر على أنها

تعبير عن حالة فردية من خلق الله – تعالى – وإنما ننظر إليها على أنها نتاج الإنخراط في تجربة فكرية عميقة وثرية ، فإننا سنتخذ صياغات المفكرين وسائل مهمة لاكتشاف أنفسنا وبيئاتنا ووسيلة لفهم الحياة عامة .

المفكرون من خلال تعريفهم بأنفسهم يعرفوننا على طبيعة النفس البشرية ، وعلى نوعية العلاقة التي يجب أن تسود بيننا وبين مفردات الوجود المختلفة ؛ إنهم يفتحون أعيننا على الطرق المسدودة والضيقة وعلى الحقول الملغمة والأساليب الناجعة والأدوات البالية ؛ ومن هنا تنبع الأهمية الاستثنائية لقراءة السير الذاتية لكبار العلماء والمفكرين وقراءة ذكرياتهم ومذكراتهم وتهميشاتهم وتعليقاتهم على أ'مال ومدهش ، وما ذاك إلا لأن قراءة سير العظماء تجعلك تعيش العديد من التجارب الثرية في عمر واحد !

هذا لا يعني أن نستسلم لأولئك الذين يساعدوننا على تنمية أفكارنا وتعميق مفاهيمنا ؛ لأن الاستسلام لاستبصارات المفرين يقلل من فاعليتها ، بل قد يجهضها في النهاية ؛ وإنما علينا أن نقف منها موقف المتفاعل الناقد الذي يبحث عن زوايا الفكرية والمعرفية المظلمة والأمور المهشمة ، وذلك من أجل إيجاد درجة من التفاعل والتكامل المستمرين .

4 – الأرضية الفكرية التي يمتلكها كل واحد منا تتدخل إلى حد بعيد في نوعية الأفكار التي سنصل إليها ، حيث يكفي أن تكون مفاهيمنا الأساسية عن إمكانات العقل وعن حدود النتائج التي يمكن أن نحصل عليها ، قاصرة أو مشوهة حتى نحصل من وراء التفكير على مفاهيم وأفكار مغلوطة .

ولشرح هذه الفكرة يمكن أن نقول : إن علينا أن نعتقد أن البارىء – جل وعلا – زودنا بالإمكانات الذهنية التي تمكننا من فهم الكثير الكثير مما في الوجود ، لكن مع هذا فإن اختراقنا لِكُنهِ الأشياء على نحو كامل غير ممكن ؛ حيث ينطوي كل مخلوق من مخلوقات الله تعالى – على عنصر غيبي أو على شيء من المجهول .

وهذه الرؤية مغايرة لما ساد في الفكر الأوروبي في القرن التاسع (قرن التفاؤل) من اعتقاد الكثيرين من العلماء هناك بأن العقل قادر على فهم كل الأشياء ، وما هو غير مفهوم آنذاك فهو في طريقة لأن يكون مفهوما ؛ ولكن الثقة المبالغ فيها بالعقل قد تراجعت كثيرا بعد ذلك ، ومع هذا وذاك فإنه لا يصح في حال من الأحوال أن نصبح شكاكين أو (لا أدريين) لا نثق بأي فكرة ، ولا نطمئن لأي مفهوم ، وإنما علينا أن نقول : إن الرؤية التي أفضى إليها اجتهادنا هي رؤية على جانب كبير من الصحة ، وسنظل نعمل على مقتضاها إلى أن نستطيع من خلال التفكير المتواصل الوصول إلى ما هو أكثر منها صوابا ووضوحا .

من وجه آخر فإن عقولنا – كما ذكرنا من قبل – لا تستطيع أن تعمل بكفاءة مطلقة وتامة حيث أن الحياد الكامل والموضوعية التامة شيئان غير موجودين لا عند المسلمين ولا عند غيرهم ، لكننا نأمل من خلال صفاء النية وقوة العزيمة وصحة قواعد التفكير أن نتعرف أكثر فأكثر على مدى سلامة أداء عقولنا ، وعلى مدى صلابة الأفكار التي تنتجها ، ومن خلال النقد والمراجعة قد نعثر على بعض

النقاط المهمة التي لم نرها من قبل ، وقد نصير إلى التراجع عن أقوال كنا لا نشك في صحتها .
بذلك وحدة يصبح التفكير أداة اكتشاف للمجهول وأداة لخلخلة أنساق المعقول واللامعقول ، ومن خلال هذا وذاك تنمو أفكارنا وتتبلور اتجاهاتنا الفكرية ، وتزداد تألقا .

تنمية الأفكار

مهما تقدمت معارفنا وخبراتنا حول طبيعة عمل العقل وتوليد الأفكار وتشقيق المعاني ؛ فإنها ستظل محدودة وغائمة ، وربما ظل ما نجهله أكثر مما نعلمه ، فمنطقة الدماغ ومنطقة المشاعر والانفعالات والعلاقة بينهما من المسائل التي يلفها الغموض .
ويشكل إنتاج الأفكار عامة مظهرا من مظاهر عظمة الخالق – جل وعلا – ولطيف صنعه وتدبيره . ومن وجه آخر فإننا مهما تحدثنا عن الإمكانات الذهنية الفطرية ودورها العظيم في التفكير ، فإننا سنظل نعتقد أن للتثقيف الجيد وللخبرة والمرانة في تشغيل الذهن دورا جوهريا في هذا الشأن . وإن معظم منتجي الأفكار ليسوا هم الذين يملكون التألق الذهني والذكاء الخارق ، وإنما أولئك الذين يملكون فضيلة الاهتمام بتثقيف أنفسهم ، كما يعرفون الطرق والأدوات التي يحرضون بها عقولهم على نسل الأفكار وتحويرها وتطويرها . وهذا طرف من تلك الطرق والوسائل أسوقه في الحروف الصغيرة الآتية :

1 - **يأتي** كثير من جمود الأفكار وكثير من عطالة العقل من أننا في معظم الأحيان نؤثر أن ننأى بأنفسنا عن خوض غمار المشكلات والأزمات ، ومحاولة اجتراحها وتكوين بعض الأفكار عنها . وهذا يعود في الحقيقة إلى كون التفكير عملا شاقا ومزعجا ، ولكن دون ممارسته فلن تنمو قدراتنا على إنتاج الأفكار ، كما لا تنمو عضلات الجسم على نحو جيد من غير ممارسته الرياضة .

إن إقحام النفس في معالجة قضية لا يؤدي إلى تشغيل العقل فحسب ، بل إنه كثيرا ما يحرض على جمع البيانات والمعلومات واستطلاع الآراء وطلب الملاحظات ، تماما كما يفعل طبيب حاذق واجه حالة مرضية معضلة ، إنه يجمع المعلومات ، ويجري الاختبارات المطلوبة من أجل الوصول إلى أفضل تشخيص ممكن ، وبعد التشخيص يحاول الوصول إلى أمثل طريقة للعلاج من خلال القراءة في المراجع والاستعانة بآراء الزملاء الذين يمكن أن يساعدوه في ذلك . وهكذا ، فالتفكير الجيد يتطلب دائما الحصول على المزيد من المعرفة ، وبذلك يصبح التفكير عبارة عن بوابة للنمو العلمي واكتساب الخبرة .

2 - يجد الواحد منا نفسه في بعض الأحيان مغمورا بحالة من الاستبصار والاستنارة ، حيث يشعر أنه بات يملك فكرة جديدة متكاملة ومنطقية ، ولا يدري بالتحديد من أين جاءته تلك الفكرة . وكثيرا ما يحدث ذلك حين يكون

المسلم في صلاة أو في حالة مناجاة وخضوع وتملق لله – تعالى – هذا يعني أن الواحد منا حين يكون في وضعية تلمس لفكرة أو بلورة لخاطرة أو تمحيص لمفهوم فإن مما يفيده أن يطلب من الله – تعالى – الهدايه والفتح ، فما عند الله – تعالى – كثير وعظيم ، وقد كان أحد العلماء يقول وهو يجتهد ويبحث وينقب في بعض المسائل : " اللهم يا معلم إبراهيم علمني ويا مفهم سليمان فهمني " .

3 - الاستفادة مما لدى الآخرين وسيلة مهمة من وسائل تنمية الأفكار . والحقيقة أن كل إبداع فكري جديد يرتكز على إبداعات فكرية سابقة ، فنحن حين نفكر لا ننطلق من فراغ ، وكما أننا نحاول أن نستفيد من أفكار غيرنا من أجل شيء جديد ، فإن غيرنا سيأتي ويستفيد من أفكارنا .

إن الأفكار بطبعها تقبل التحوير وتقبل التوظيف المتعدد والنقل من حقل إلى حقل ومن سياق إلى سياق ، فقد نكشف أن سر نجاح فلان في التدريس – مثلا – يعود إلى الاهتمام بتحضير المادة التي يدرسها ، وحينئذ فإننا نستطيع استخدام مسألة الاهتمام بالتحضير هذه وتوظيفها في عدد كبير من الأنشطة والأعمال ، مثل الاجتماعات والندوات والمحاورات والصفقات والمواعيد وحل المشكلات ولكتابة والتفكير ....

وإذا وجدنا من يقول : الإنسان كائن اقتصادي ، أي يسعى إلى الحصول على ما يريد في مقابل أقل شيء ممكن ، واقتنعنا بصحة هذا المبدأ أو هذا القانون ، فإنه سيكون في إمكاننا استخدامه في تفسير السلوك الإنساني وتعليله في مجال المال والبيع والشراء ، وفي مجال اللغه والتعبير ، وكل مجالات بذل الجهد والطاقة ، ونكون قد أغنينا ذلك القانون من خلال توسيع مدلولاته وإيجاد تطبيقات جديدة له . وفي هذا يقول أديسون – وهو أكثر من سجل اختراعات في العصر الحديث : " اجعل استعارة الأفكار عادة ، وواصل التطلع إلى الحصول على الأفكار الجديدة والمهمة التي استخدمها الآخرون بنجاح "

إن اطلاعنا على أفكار الآخرين لا يساعدنا على تنمية أفكارنا فحسب ، وإنما يعطينا نوعا من الشعور بالأمان ، إذ يوفر لنا رأس جسر للانطلاق نحو أفكار جديدة ومجهولة لنا ولغيرنا ؛ ومنهم أولئك الذين يستخدمنا أفكارهم بمثابة شرارة إشعال ، أو خميرة لتفاعل فكري ومفاهيمي .

الإبداع هو صناعة العقل ولا ريب لكن العقل يحتاج إلى مادة خام يشتغل عليها وتلك المادة قد تكون ملاحظة صغيرة أو فكرة جزئية أو مبدأ عاما أو تجربة شخصية أو استخلاصا من حادثة ...

4 - الملاحظة والاستكشاف ومحاولة فهم طبائع الأشياء وفهم العلاقات التي تربط بينها ومجالات استخدامها والانتفاع بها ووجوه تطويرها .. وسائل مهمه لتنمية الأفكار . ومن المعلوم أن الملاحظة مصدر هائل من مصادر إثراء الفكر الإنساني ، ومصدر مهم جدا من مصادر تعديل المفاهيم التي كوناها عن الحياة والأحياء .

ملاحظة الظواهر الطبيعية والكونية شأن من شؤون العلماء ؛ والإنسان العادي محتاج أيضا للملاحظة ، حيث إن أحدا لن يقدم له سوى مساعدة هامشية في فهم ذاته وطريقته في الحياة وفي أسلوب تربيه لأولاده.. إنه بحاجه إلى الملاحظة كي يعيد تكوين مفاهيمه عن ذاته ، أو أقل حتى يعيد اكتشافها من جديد ، فاكتشاف الذات أهم من اكتشاف القمر والمريخ ، وأهم من المعلومات التي نحصل عليها من وراء الحفريات الجيولوجية .. لا ريب أن هناك خطوطا عريضة وسمات عامة تشكل الطبيعة البشرية ، لكننا عند النزول إلى مستوى التفاصيل ، فإننا سنجد أن كل واحد منا عبارة عن مخطوطة فريدة ؛ وعلى سبيل المثال : فقد يلاحظ أحد الناس أنه أفرط في تدليل أحد أولاده ، مما أدى إلى إيجاد خلق الإهمال والاستخفاف لديه ،فيحاول تلافي ذلك بأساليب تربوية أكثر حزما . وقد يلاحظ أن إرادته تجاه النوم أو الطعام أو الحديث في الهاتف ضعيفة ، فيسعى إلى مجاهدة نفسه ليصبح أقوى عزيمة وأصلب إرادة في مواجهة رغباته في هذه الأمور ... والملاحظة الشخصية هي التي توقفنا على هذه الأمور وغيرها .

إن من عرف نفسه عرف ربه ، وإن النفس ليست عبارة عن كتلة صلدة أو طبقة واحدة نخترقها ، ونشعر بالتالي أننا استطعنا معرفتها والتحكم بها على ما نحب ، إنها طبقات بعضها فوق بعض ، وأدواتنا في الاتجاه نحو الأعمق منها هو ما نمتلكه من خبرات ومفاهيم وانطباعات ؛ وكثير منها يتكون عن طريق الملاحظة ، وتركيز الذهن في فهم خصائص الأشياء .

5 - لنحاول امتلاك النظرة للأفكار والمفاهيم والحلول المطروحة حول أي قضية من القضايا وفي أي مجال من المجالات . لا يعني النقد – كما أؤكد دائما – إبراز العيوب والنواقص والأخطاء ... فحسب ، وإنما يعني – إلى جانب ذلك – بيان الإيجابيات والمزايا والفوائد والأمور المستجدة ... النظرة النقدية عبارة عن محاولة استقصاء وسبر لأغوار فكرة أو حل أو مشروع ،وعدم الوقوف عند المعطيات القريبة والظاهرة ؛ إذن إن هناك دائما خطرا جاثما يتمثل في مداهنة عقولنا لمشاعرنا ، حيث تقوم بإنتاج الأفكار والميزات والسلبيات التي تنسجم مع ميولنا ورغباتنا ، وذلك مصدر من مصادر الإرباك والإفقار للحلول والرؤى والأفكار.

كي نتجاوز هذه المشكلة فإن علينا أن نسير في الاتجاه المعاكس ، وعلى سبيل المثال ، فإننا حين نحاول تنمية أفكارنا حول طلب أحد أبنائنا إكمال دراسته العليا في بلد غير مسلم ، لكنه يقدم تعليما ممتازا في التخصص الذي يرغب فيه ، فإن علينا أن نقوم بحصر ميزات الدراسة في ذلك البلد والتي منها :

- الحصول على معارف متقدمة في تخصص جيد .
- الحصول على شهادة عليا ، تساعده على الحصول على وظيفة أو دخل جيد.
- اكتساب لغة أجنبية
- القيام بالدعوة إلى الله ، - تعالى – بين أقوام غيير مسلمين .
- تنمية مهارة الاعتماد على الذات ، والتخلص من الاتكال على الأهل .
- الاطلاع على عادات وتقاليد أهل ثقافة جديدة .

-تنمية حاسة المقارنة بين ثقافتين من خلال معايشته للناس في البلد الذي سيسافر إلية .
-شق طريق لإخوته الصغار كي يقتدوا به ويرحلوا في طلب العلم .
-تحريض الأسرة على ضبط نفقاتها وإدارتها المالية على نحو أكثر حكمة وترشيدا .
- التخلص من المشاحنات والمشاجرات التي قد تكون موجودة داخل الأسرة ، والتخلص من قرناء السوء المحتمل وجودهم .
-وسيكون في إمكاننا الحصول على ميزات أخرى عديدة ، ولكن نكتفي بهذه لأننا قصدنا التمثيل ليس أكثر .
- علينا أن نتوجه بعد ذلك لاكتشاف الوجه الآخر للدراسة في الخارج والذي قد يكون مظلما ، وسيكون في إمكاننا أيضا كشف اللثام عن العديد من السلبيات والتي منها :
- احتمال عدم قدرة الشاب على التكيف مع البيئة الجديدة هناك ، وعودته دون أن يحصل على ما يريد .
- احتمال ذوبانه في مجتمع أجنبي وفقدانه لأخلاقه وتدينه وهويته .
- التعرف على أشخاص سيئين يوقعونه في حمأة الرذيلة والمخدرات .
-تكاليف مادية باهظة ، لا يدري كيف تسترد بعد ذلك .
-تأخير الزواج إلى حين العودة أو الاقتران بغير مسلمة ، وكلاهما لا يخلو من مشكلات .
-حرمان والديه وإخوته الصغار من رعايته وعنايته أثناء سفره .
- احتمال عدم قدرة أسرته على الاستمرار في الإنفاق عليه حتى في دراسته ، مما يوقعه في مشكله كبرى .
- احتمال تعلقه الذي سافر إليه والعزم على الإقامة فيه ، مما يحرم أسرته من رؤيته ومعونته ، ويجعل بلده يخسر عطاءه وخدماته .

علينا أن ندرك أن كثيرا من الميزات والمحاذير والعيوب عبارة عن أمور محتملة ، وليست حتمية . كما أن وزن كل ميزة ووزن كل سلبية مختلف ؛ ولذا فإن الرؤية لهذه القضية لا تتوقف على أعداد الإيجابيات والسلبيات فحسب ، وإنما على نوعيتها أيضا .

وكل ميزة وكل سلبية مما ذكر تكتسب وزنها الحقيقي من وضعية الشاب الذي سنرسله للدراسة من حيث دينه وخلقه واجتهاده وتعلقه بأهله وجديته وقدرته على تحمل المسؤولية ...

حتى نقوم بكل ذلك فإننا بحاجة إلى أن نتخلص من الأحكام التعميمية السائدة والشائعة سواء منها الإيجابي والسلبي ؛ حيث إنه ليس من النادر أن نرى من يلهث خلف ابتعاث ابنه للدراسة غير آبه بكل المحاذير والمخاطر التي قد تقع فيها ، كما نجد في المقابل من يرفض أي نقاش حول إرسال ابنه للدراسة خارج البلد مهما كان البديل سيئا ، ومهما كانت المخاطر محدودة . على كل حال فإن علينا

أن نحرص أثناء مناقشه الميزات والعيوب لهذا الأمر على أن نكون واقعيين ومنطقيين ، وألا نلقي بالأحكام جزافا دون أي معرفة بحقائق الأمور .

6 - في كل مجال من المجالات مفاهيم مسيطرة ، هي في منزلة أدبيات توجه الناس أثناء تحركهم في ذلك المجال، وتلك المفاهيم يتوارثها العاملون ي ذلك المجال وهم لا يقبلون أي نقاش لها ؛ لأنها مركوزة في منطقة اللاوعي لديهم . ولا ريب أن تلك المفاهيم لم تنشأ من فراغ وإنما من خبرة وتجربة ، لكن التقدم التقني والعلمي السريع والهائل يعرض كل الخبرات الماضية للاهتزاز والقصور ، ولهذا فإننا حتى نثري أفكارنا في كل مجال من المجالات نحتاج إلى أن نتحرر من سيطرة المفاهيم القديمة وإبداء نوع من الشك حولها .

وعلى سبيل المثال فإن من الأقوال الشائعة في طلب العلم قديما " من لم يكن له شيخ فشيخه الشيطان " وقولهم : " الطالب بين شخصين مثل رأس بين سيفين " قد يكون هذا وذاك مقبولا في الماضي وفي بعض المجالات ، لكن اختلف الأمر اليوم حيث يمكن أخذ كثير من العلوم عن مصادر أخرى غير الأساتذة ، كما أن كثرة الأساتذة صار ضروريا من أجل مزيد من التفتح . نعم في مقام التربية والتوجيه قد تؤدي كثرة الموجهين إلى بلبلة الطالب .

من المفاهيم المسيطرة في عالم التجارة أنه من غير المال لا يمكن الحديث عن القيام بأي نشاط تجاري ، وقد كان هذا المفهوم جوهريا في الماضي ؛ أما اليوم فلم يعد ألأمر كذلك ، ففي ظل كثرة العناصر التي تؤثر في نجاح المشروعات الصناعية والتجارية ، وفي ظل تزايد دور الكفاءة المهنية في نجاح الأعمال ، صار من الممكن القيام بمشروعات كبيرة من غير توفر أموال لدى صاحب المشروع ، وكل من يعرف أعداد من يساهمون في مشروعات لا بأموالهم ولكن بأفكارهم وإدارتهم وإشراقهم يدرك صدق هذا ، وهناك إلى جانب هذا أموال كثيرة لم يستطع أصحابها إدخالها إلى السوق أو إلى دورة الإنتاج ؛ لأنهم يفقدون الأفكار التي يؤسسون عليها مشروعات ، أو يفقدون الإداري الكفء الذي يشرف على تشغيلها ، وهكذا ...

التحرر من الأفكار المسيطرة باب كبير نلج منه إلى الأحدث والأنسب والأجود والأصلح والأرخص ، بشرط أن نتخلص من التعلق بكثير من الأفكار والأساليب لا لشيء سوى أنها قديمة ومتوارثة !

7 - الأفكار لا تنمو من خلال التفكير والتأمل فحسب ، وإنما تنمو من خلال التطبيق أيضا ، فنحن أصحاب مبادئ وطموحات ونؤمن بقيم ومثل عالية ، وانطلاق من كل ذلك فإن عقولنا تولد الأفكار النظرية والعملية التي تستجيب لما ذكرناه وتنسجم معه . ولا ريب أن النقاش والحوار والمقارنة مما ينمي تلك الأفكار ، لكن يبقى للتطبيق صوت من جرس آخر ، حيث يشكل محكا حقيقيا لمدى نجاعة المفهوم ومدى عملية الفكرة ، وهذا المحك يبلغ درجة من القوة والنفاذ والقدرة على التحكم التي تجعلنا نقول من غير تحفظ :

إنه ما من فكرة تدخل في حيز التطبيق العملي وتستطيع أن تسلم من شيء من التغيير والتعديل ، وذلك التعديل قد يكون لصالح ترسيخها حيث تثبت الوقائع أنها

قادرة أنها قادرة على العطاء أكثر مما يكون لصالح ترسيخها حين تثبت الوقائع أنها قادرة على العطاء أكثر مما كان مرجوا منها ، وقد يكون في اتجاه التهوين من شأنها ، بل التخلي ، وذلك حين تكون النتائج أقل مما كان يؤمل ، وهذا هو الغالب .
وهكذا فقد رأينا الكثير الكثير من الأشخاص الذين يصابون بخيبة أم بعد النزول إلى الساحة العملية ، وكان التطبيق عبارة عن مقص يعمل في أجنحة الخيال المحلق والأوهام المسيطرة . وهذا في الحقيقة شأن إنساني عام .
وهذا لا يدعونا إلى أن نقلل من التفاؤل ، أو نحد من طلاقة الخيال ؛ فالتخلي عن الأفكار من خلال امتحان الواقع لها ليس عيبا ولا أمارة على الفقر الفكري ، وإنما هو إثراء للبنية الفكرية للشخص ، إذ إننا في حاجة إلى التعرف على الطرق المفتوحة والسهلة والقصيرة والآمنة ، وهي جميعا تشكل في مجملها جسما من الخبرة الحية لدى البشر ، المهم دائما أن نعترف بنتائج اختبار الواقع ونستفيد منها ، بعيدا عن التصلب والغرور ودفن الرؤوس في الرمال .
8-لكل قضية ولكل مشكلة شخصيتها الخاصة بها ، ومهما بدا لنا التشابه الشكلي بين المشكلتين أو قضيتين فإنه يظل هناك فوارق تميز بينهما . والبحث فيما يكتنف كل مشكله من أسباب وحيثيات وسياقات ، وما يتعلق بها من تفاصيل ، يعد مصدرا مهما لإثراء أفكارنا وتنميتها .
وعلى سبيل المثال : فإنه حين يحدث جمود اقتصادي وركود في الأسواق فإنه تكثر حالات إشهار الإفلاس ، ويكون الركود الاقتصادي هو السبب المباشر الذي يمكن أن نفسر به كل حالات الإفلاس ، ويكون ذلك التفسير مقبولا عادة ؛ لكن أفكارنا حول الأسباب الحقيقية تكون فقيرة جدا ، وإذا ما أردنا إغناءها ، فعلينا أن ننظر في كل حالة على حده . وإذا انطلقنا من فكرة تقول : إن الركود الاقتصادي يؤذي جميع التجار ، لكنه لا يخرج من السوق إلا الحالات المريضة ، فإننا سنبحث وسنجد أن كل حالة إفلاس هي عبارة عن حكاية كاملة وقضية مختلفة ، فهذا تاجر أفلس بسبب سوء الإدارة لديه ، وذاك أفلس بسبب أخده قروضا لم يستطع تسديدها ، والثالث أفلس لأن سلعه منافسة دخلت السوق ، فانصرف الناس عن سلعته ، ورابع أفلس بسبب ممارسته للغش ، فانكشف أمره ، وانفض عن زبائنه ، وهكذا ... وقد نجد تاجرا جمع كل هذه العيوب .
ختاما ، أحب أن أشير إلى أن ثراء الأفكار ليس شيئا نتملح أو نتفكه به ، إنه يشمل ضرورة حيوية لنا جميعا حتى تكثر أمامنا البدائل ، وتتضح سبل النهوض ، وتزداد الخبرات بعقبات الطريق . وإذا كانت الأمة في حاجة إلى هذا في كل وقت ، فإن حاجتها إلية في أوقات نهوضها وانطلاقها تكون أكبر وأشد .

القيم تحجب الواقع

كل واحد منا يتمنى لو يستطيع معرفة الواقع على ما هو عليه من غير أي وسائط ومن غير أي إضافات ، حيث نشعر أن ذلك شرط لاستفادتنا من معطيات ذلك الواقع وشرط أيضا لإصلاحه وتطويره ؛ لكن ذلك على ما يبدو غير ممكن ، فنحن حين نحاول رؤية الواقع نستخدم المعلومات المتوفرة عنه ، كما نستخدم القيم التي نؤمن بها ، وما تولده تلك القيم من رؤى وتطلعات وأهداف ...
من الممكن حقا أن يحصل كثيرون على معلومات موحدة عن ظاهرة من الظواهر ، ولا يؤدي ذلك إلى توحيد رؤيتهم لتلك الظاهرة ، إذا كانت القيم التي يحملونها غير متطابقة ، أو كان التركيب العقلي لديهم مختلفا .
لو جئنا إلى أبناء جماعة واحدة ، وحاولنا معرفة انطباعاتهم عن مدى التقدم الذي تحرزه جماعتهم على الصعيد الإصلاحي والدعوي لوجدنا أنهم يدلون بآراء مختلفة :
فمنهم من سيقول : إن الجماعة تواجه أزمات داخلية وعقبات خارجية ، ولذا فإنها بالنسبة لما يحققه منافسوها من تقدم تتقهقر وتراجع ، وإنها اليوم في أسوأ حالاتها .
لكن ستجد من يقول : إن المحن التي تمر بها الجماعة قاسية جدا ، وتلك المحن لو واجهتها أي جماعة غير جماعته لكانت الآن خبرا بعد عين ولزالت من الوجود ؛ ولذا فإن مجرد استمرارها يعد إنجازا كبيرا يحسب في رصيدها.
و ستجد من يقول لك أيضا : إن الجماعة تتقدم ببطء ، وقد كان في إمكانها أن تكون أفضل مما هي عليه الآن لو أنها غيرت كذا وكذا وعملت كذا وكذا ...
هذا الاختلاف في تقييم تلك الجماعة يظل واردا ولو ملّكنا الذين استفتيناهم مجموعه موحدة من المعطيات والأرقام والحيثيات عن الوضعية العامة لجماعتهم ؛ لأن الصور الذهنية التي يمتلكونها عن النجاح والإخفاق والتقدم والتعثر والظروف الصعبة والجيدة وعن الأهداف الدقيقة لجماعتهم ... ليست واحدة . وقد لا يكون هناك أي سبيل لتوحيدها ، وإذا افترضنا جدلا أنه يمكن توحيد المفاهيم والصور الذهنية لدى الذين أحببنا الوقوف على آرائهم ، فإننا سنواجه مشكلة أخرى ، وهي تعود هذه المرة إلى طبيعة عمل العقل ، إذ إننا نحاول إدراك الواقع فإننا على ما يبدو لا نتمكن من ذلك إلا من خلال تفكيكه وتحويله إلى عدد من القضايا والمشكلات المختلفة ، وأثناء عملية التفكيك والتقسيم والحصر يقوم العقل بنوع من الاصطفاء لبعض القضايا وإبرازها على أنها الواقع كله ، ويقوم بتغييب بعض آخر منها أو تهمشيه ويحيده .
وعقول البشر لا تقوم بذلك وفق قواعد محددة أيضا ، فما أركّز عليه أنا أنه أهم ما في الواقع لا يتطابق بالضرورة على ما تركز عليه أنت ، أو يركز عليه زيد من الناس ، وهذا العمل الاصطفائي من العقل قد يعود إلى عجز عقولنا عن إدراك كل مفردات الواقع فتقتصر على أهم ما فيه على أنه ممثل لذلك الواقع ، وقد يعود إلى ما تتلقفه عقولنا من إيحاءات القيم التي نؤمن بها .

على هذا فإن القيم التي نحملها تقوم بدور مزدوج ومتناقض ، فنحن لا نستطيع إدراك الواقع من غيرها ، وهي في الوقت نفسه تتأبى على أن تجعل من نفسها مجرد أداة في استكشاف الواقع ، فتقوم في إخفاء ذلك الواقع أو تجعلنا نراه على نحو نسبي ومتفاوت .

ولا يخفى أن الشعوب التي لم تصل إلى مستوى مقبول من تنظيم شؤونها لا ترى في الفوضى ما تراه فيها الشعوب المتقدمة من مساوئ ومشكلات . والأمم التي فقدت الترابط الأسري على نحو شبه تام لا تستطيع اكتشاف معاني الترابط والتواصل والتآزر بين أبناء الأسرة وأهميتها في تخفيف أعباء الحياة، وهكذا ...

الحقيقة أنه ليست القيم ولا الصور الذهنية وحدها هي التي تحجب الواقع ، وإنما هناك العديد من الأمور الأخرى ، والتي منها : مرارة الواقع التي نواجهه ، نحن حين نعيش في واقع نشعر أنه صعب نتهرب من محاولة فهمه على نحو جيد حتى لا نغرق في مشاعر الألم والإحباط ، ونجد أن من الأنسب أن نتحدث عن المستقبل ، وهذا ما نلمسه لدى كثير من الدعاة والمصلحين ، فهم لا يركزون على ما يفعله الناس ، ولا على ما يمكن أن يفعلوه ، ولكن على ما يجب أن يفعلوه ؛ إنهم بذلك يبتعدون عن الواقع ، ويدورون في فلك المثل التي يؤمنون بها . وهذا في تصوري خطأ منهجي ، حيث إننا نؤمن أن النظر إلى المستقبل يجب أن يتم من خلال برامج وخطط واضحة ، وليس من خلال أمنيات وتطلعات هي في العادة مما يقتات به العاجزون والعاطلون عن العمل !

التكيف عامل مهم من عوامل حجب الواقع ، فالحياة هي سلسلة من الابتلاءات ، وتعاملنا النشط معها هو عبارة عن سلسلة من الاستجابات ؛ ونحن أثناء تلك الاستجابات نضغط على أنفسنا ، ونستنفر قوانا ، ونتحمل الآلام والعذابات كي نرتفع إلى مستوى التحديات التي نواجهها ، وحين يتم لنا ذلك نكون قد تكفينا وتأقلمنا معها ، ومن خلال التكيف والتألم تنطمس معالم التحدي وينطمس معها الكثير من معالم الواقع الذي نعيش فيه . وأنا أشبه التكيف بجرعة الدواء التي يأخذها المريض لخفض حرارة جسمه ، إنه من خلال تلك الجرعة يتخلص من معاناة الشعور بالحرارة ، لكنه قد يخدع الطبيب المعالج حين يخفيها عنه .

الخلاصة التي يمكن أن نخرج بها من وراء هذا البيان لعمليات حجب الواقع عن مداركنا هي : أن علينا أولا ألا نتصلب كثيرا تجاه الرؤى والتحليلات التي تصور الواقع على نحو مغاير لتصورنا عنه ، إذ لا ندري على وجه اليقين أينا أقرب إلى التحليل الصحيح .

وعلينا ثانيا إذا ما أردنا فهما أفضل للواقع أن نسعى إلى أحسن تحديد ممكن للمفاهيم والصور الذهنية التي نفهم من خلالها الواقع ، وإلى أدق معلومات يمكن الحصول عليها ، ومع كل ذلك فإن علينا أن نسلم بأننا نقوم بمقاربات لفهم الواقع ليس أكثر ، وأن القبض التام والنهائي عليه غير ممكن .

د.عبدا لكريم بكار

والحمد الله رب العالمين
والصلاة والسلام على نبينا محمد .